843: B27/A: C.1

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A.U.B. LIBRARY

جنة على نهر العاصي

843
B27dA
C.1

موريس بارِس
عضو المجمع اللغوى الفرنسى

جنة على نهر العاصى

تعريب
محمد عبد الحميد عنبر وعبد المجيد عابدين

67822

دار الكاتب المصرى

الطبعة الأولى . . . ابريل ١٩٤٦

العنوان الأصلى للكتاب
بالفرنسية

MAURICE BARRES
UN JARDIN SUR L'ORONTE

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصرى ١٩٤٦

فى حماة ، وفى يوم محرق من أيام شهر يونيو ١٩١٤ ، وفى مقهى صغير عتيق ، كنت جالساً على ضفة نهر العاصى ، والسواقى ترفع مياهه المباركة وتتابع دورتها ليل نهار ، على طول المجرى ، فتملأ بأنينها أجواز الفضاء ؛ وكنت بصحبة شاب عالم يقص لى من مخطوط عربى قصة غرام ودين . . . لقد كانت ساعة من الساعات المقدسة التى تظل دائما فى صميم الذاكرة ، ذخيرة ساحرة .

فى ذلك اليوم ، وفى هذا البلد العجيب ، الجاف ، حيث تسفى رياح الصحراء دوامات من غبار البقاع النائية ، بقاع الصليبيين والسلجوقيين والأشوريين واليهود والفينيقيين كنت أرتقب تأهب القافلة الصغيرة التى كان عليها أن تهدينى إلى كشف القلاع القديمة والتعرف على سلالة الحشاشين المعروفين . كان هذا الشاب أيرلنديا ، عهد إليه المتحف البريطانى فى التنقيب فى مدينة جَرَابُلُس ، على نهر الفرات ، جمعتنى به فرصة سعيدة حينما كان متسكعاً مثلى فى أزقة السوق .

عصافير الجنة تطير طيرة المساء، وعكف زميلى العالم على المخطوط يبحثه ويمعن فيه . ولبثت تحت غصون هذه الأشجار الوديعة التى تشبه أشجار بلدتنا غير أنها مباركة فى هذه البقعة إذ سمحت أن تعيش فى مثل هذا الجو الجاف فأذاعت فيه النسيم الرطيب؛ وأشاهد الماء السلسل الذى يبعث الحياة، ومجلات الارخية المتواضعة وهى تسمو إلى ذروة الشعر الحى ، وأتذوق لذة هذه الواحات الجرداء العتيقة التى تضمها آسيا بين جناحيها والتى تتسق مع نبضات قلوبنا الخفية . ياله من حنين يعجز عنه القلم المبين! أى شيطان يقصده القلق الذى يثيره فى نفوسنا ذلك المظهر الرائع البسيط ؟ ما الذى أعشقه فى سوريا ؟ ما الذى أتوق إلى التعلق به فيها ؟ لكأنى أستنشق فى هذه البقعة — فضلا عن نسيم الأنهر الأربعة — ذكرى مباهج البستان الذى كانت تسد طريقه فى الماضى السحيق ، سيوف ملتهبة من سيوف الملائكة المقربين .

قال الايرلندى بعد ساعة أمضاها مستغرقاً فى قراءة نص المخطوط :

— حقاً ؛ إنها لقصة عجيبة ممتعة ، ومما يزيد فى إمتاعها أن فصولها حدثت فى هذه المنطقة . ألم تلمح ، وأنت قادم من حمص ، آثار قصر ودير ، على ضفاف نهر العاصى ، وعلى مقربة من قرية

رستان ؟ فى هذا المكان الذى تذكره بعض الخرائط باسم « قلعة العابدين » كان يعيش فى القرن الثالث عشر الميلادى ملك من ملوك الإسلام — وما كنت أعرف ذلك من قبل — وافر النعمة غزير الثقافة . وما كان أكثر عدد هؤلاء الملوك الذين كانوا يقضون حياتهم بين النساء ، ويلتذون سماع الشعر والموسيقى ، ويتطارحون ألوان اللغة ومشاعر النفوس ؛ ثم تدركهم النهاية المحتومة فيصبحون ، على حين غرة ، أثراً بعد عين ، أو ذرة فى هبة الريح متلاشية تلاشى الزهرة اليانعة .

قلت له :

— حسناً ! تلك معونة منك طيبة . إن حماة ، بعد الظهيرة وتحت هذه الشمس ، خاوية عادمة الروح ، وها هو ذا الليل يرخى سدوله ، فلتجعل لى هذا الليل عامراً بالشخوص زاخراً بالأشباح ، ولتستدع لى أشخاص هؤلاء المجانين ليبعثوا على اللذة والامتاع .

فأجابنى ضاحكا :

— سأكون فى خدمتك ، وستجد طائفة رائعة من صور الحسن العربى تحكى باقة من زهور الخزامى المشرقة ذات القلب القاتم . على أنه يجب ألاّ يعزُب عن البال أن كتابة الشرقيين كانت أقرب إلى أن تكون أخباراً منها إلى التاريخ ؛ يسردون

١

ذات يوم ، استقبل أمير القلعة بعثة نصارى طرابلس ، يطلبون إليه أن يؤسسوا معه علاقاتٍ ودية ، فرحب بحاملى غصن السلام ترحيباً عظيماً ؛ فقد كان يتمنى فى صميم نفسه أن يتمتع تحت لواء السلم بثروته الضخمة وبساتينه الغناء وحريمه الزاخر بكرائم النساء . وكان على رأس هذه البعثة فارس يدعى السيد جيوم ، له من العمر أربعة وعشرون عاماً . كان فياض القلب ، صريحاً ، جريئا ، فصيح اللسان يحكى فى شمائله شعراء الفرسان المعروفين . وكان قد حضر من فرنسا منذ كان عمره ستة عشر عاما فأتاحت له إقامته فى سوريا إجادة اللغة العربية والتكلم بها بطلاقة تدعو إلى الإعجاب . وسرعان ما أعجب به الأمير وأصبحا متلازمين لاسيما وقد كان الأمير ميالا إلى تجديد اللهو كلما عرض له ضيف غريب .

كان الأمير يستصحبه متى أراد الصيد بالباز وكان يطلعه على حدائقه وقصوره والمسيحى الشاب يتعجب من كل شئ عجباً لا ينقضى

كانت تعد حدائق القلعة من أجمل حدائق سوريا فى وقت نبغ فيه العرب فى التعبير بالماء والزهر عن أحلامهم اللانهائية فى الحب والدين . كنت تجد فى الحدائق وردة طرابلس ذات القلب الأصفر ووردة الاسكندرية ذات القلب الأزرق ، وأشجار الترنج واللوز والبرتقال والخوخ تظلل القنوات المتفرعة من نهر العاصى التى تروى الحشائش المعطرة بشذا الزنبق والنرجس والبنفسج ، وتنبث — هنا وهناك — ظلل* مكسوة بالحرير الأنطاكى والفارسى ومشيدة بالزجاج العربى والصينى . وبالجملة زخرت القلعة بألوان من الأبهة والفخامة لا يضارعها فى ذلك شيء .

ظل الفارس الصغير بين تلك المباهج فى مرح دائم وكان الأمير لا يتردد فى أن يتيح له فرصة العبور تحت نوافذ الظلل التى تثوى فيها زوجاته ليروح عن نفوسهن بمشاهدة الضيف الغريب ،

---

* الظلة ما استظل به .

فكن يكتمن الإعجاب به . وبعد مضى أسابيع ، بدأ يحس بالفراغ ويشعر أن شيئاً ينقصه لإكمال لذته ؛ خيل إليه أن هذه الأريكة الحريرية فى حاجة إلى من يبث فيها الحياة ؛ كان يرى — وهو يجوس خلال البساتين — آثارا خفيفة على الرمال أشبه أن تكون آثار ظباء . وكان يرى الحشايا المعطرة المبعثرة على الحشائش وهى محتفظة بما طبع عليها من معالم الأجسام البضة التى كانت تستند إليها .

قال الفتى للأمير ذات صباح :

— كل ذلك يا سيدى رائع فخم ، ولكن يخيل إلىّ أن هذا البذخ لا يتم إلا إذا أنعشنا نفوسنا بشىء من العزف على الناى الذى يبعث فى النفوس ضحكة اللذة أو لوعة الحياة .

— أى ألحان تريد أن يُعزف بين يديك وأى نبيذ تريد أن يساق إليك ؟

— إننى أقصد اللذة التى يحصل عليها المرء من غير نبيذ ومن غير ألحان . ليس لدينا ثروتكم ولا ترفكم أيها المسلمون وإنما من عاداتنا أن نجتمع نساء وفرساناً ونستمتع فى مجالسنا بسماع قصص فى الحرب والغرام . وقد كان آخر ما سمعت قصة « تريسْتَانْ وايزولتْ » وما كان لهما من سحر عجيب . وكم

كان يبهجنا أن نرى وجوه النساء المشرقة تشاركنا فيما يختلج فى نفوسنا من شعور .

قال الأمير :

— هل تظن أننى كالطاووس مظهره هو كل ما يملك ؟ ما قيمة البُسُط والأحجار النفيسة وما قيمة سلطانى إذا لم أكن أخفى من وراء ذلك كله شيئاً أجمل وأروع ؟

فى هذا المساء دعا الأمير جيوم إلى العشاء فى رواق الشرف للقلعة . وجلس كلاهما على البُسُط أمام المأدبة . هواء الليل يمر طلقاً من خلال النوافذ العالية العريضة فيذبذب من خيوط الماء المنبثق من الحوض المرمرى فى وسط الغرفة ، وينشر رطوبة وديعة فى جو الرواق . لهب المشاعل يتراقص فتخفى ظلاله بعض ما كان يزين أسفل الجدران وأعلاها من رسوم الببغاوات والغزلان والأرانب الجبلية . وبرزت فى الحائط مقصورة مظلمة من خشب مزركش عربى جلس تحتها الأمير والفتى

عزف الموسيقيون فى غرفة قريبة ، وسقى الأمير ضيفه كثيرا من النبيذ وبعد أن تهيأت المناسبة أمرهم بالسكوت وطلب من الفتى أن يحكى له قصة (تريستان وايزولت) .

قبل الشاب أن يقص ، فروى كيف أنهما شربا شراب الحب

السحرى وكيف تحابا حباً لا يقهر رغم ما صادفهما من بؤس وشقاء ، وكيف كان واجباً علينا أن نغفر لهما ما اقترفا من ذنوب فان كل فرد منا — شاباً كان أم كهلا — واثق أنه سيلتقى — يوما ما — بالشخص الذى يخضع له وينجذب إليه حتى آخر رمق فى حياته . وإنه لمندفع فى إتمام قصته إذ سمع بغتة هفيف الحرير فى المقصورة فتوقف ، ورفع رأسه ينظر إلى المقصورة المظلمة .

قال الأمير :

— هوّن عليك يا سيد جيوم ، فانها الفيران تنتظر فراغنا من العشاء لتتناول فتات المائدة ، فامض فى قصتك .

استأنف جيوم قصته ولكنه سمع من جديد هسيس الحديث فقال :

— يخيل إلىّ ياسيدى أن فيران القلعة تؤثر القصص على الطعام الجيد .

فتهلل وجه الأمير فرحاً بهذه النكتة وأسلم نفسه إلى ضحك متقطع وهو يربت على كتف جيوم ويسأله :

— لم تريد أن تفارقنى بهذه السرعة ياسيد جيوم ؟ لقد تفاهمنا على نص المعاهدة مع زملائك وسنعقد هدنة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات . ويا حبذا لو أعاهد

أمير أنطاكيه ! فلتبق إذن معنا ردحا من الزمن تنعم فيه بالسلام .

— ما جئت يا سيدى إلى آسيا لأجل الحرب وحدها .

— فلأى شئ آخر جئت ياسيد جيوم ؟

— لشئ روته لى أمى .

— ما هو ؟

— كانت أمى قد روت لى قصص الذين تحابوا حتى لَقُوا حتوفهم ؛ وكان حبهم عنيفاً أحسوا به قبل أن يجمع القدر بينهم ؛ وكانت تقول لى : « لو كنت شابا لذهبت أفتش عن سعادتى فى أنحاء الوجود » . لهذا قصدت هذه الأرض ، أرض المسيح وتقلدت الصليب حتى يوفقنى الله فى مسئلتى فأحظى بجنتى فى السماء والأرض . وكم كان أملى أن أرى الملائكة قبل أن ينقضى أجلى ، ولكنى بعد ثمانى سنوات قضيتها هنا أترقب هذا الحلم وأنشد هذه الأمنية دبّ إلى روعى أننى كنت مبالغاً فى هذا الحلم والآن أصبحت أوثر الرجوع إلى مسقط رأسى — وقد ماتت أمى — لعلى أن أجد الحورية التى ضنت بها آسيا ، إلى جانب كنيستى الثاوية قريباً من الغدير .

أعجب الأمير بهذه الحماسة التى عززت رغبته فى التشبث ببقاء هذا الشاب الممتع . وبعد برهة صمت قال لجيوم :

— أخبرنى ماذا تفعلون حسب عاداتكم فى وطنكم إذا ما ملك أحدكم غادة فاتنة ألا يُطلع أحباءه عليها ؟

— من غير شك ! كنا إذا خرجنا للمبارزة حمل كل شعار غادته فكنا إذا أردنا أن نكتسب تقدير الناس جميعاً افتخرنا بها جهارا .

— لك حق ! فلو سمع أحدنا صوت البلبل لقال لصديقه : أصغ ، ولو نسق حديقة غناء لسرّه أن يثير ذلك إعجاب المتطلعين إليها من وراء ستار . حقا ! إن غناء الناى الذى تتمناه والنشوة التى تطلبها بدون خمر وبدون ألحان ، كل ذلك موجود فى ظلة من ظلل بساتينى . إنك تعلم أن الغرة البيضاء فى جبهة الفرس دليل على نقاء دمه وجمال جنسه . وإنى لأملك تلك الفرس ذات الغرة البيضاء . . . فلا تيأس من وجود ما كانت أمك تخبرك عنه ، فالجنة قائمة على وجه الأرض ، ولن تبرح القلعة حتى يحيك فى صدرك جمال الملائكة الذين يحيون ليالى آسيا .

كان الأمير طائشا حين تحدث بذلك . ولعله داخله الغرور فحمله على التحدث بتلك المناعم كأنه لا يشعر لها بلذة ولا يتذوق لها طعما الا إذا وجد نفسه محسوداً عليها . ولا سيما وقد كان تحت سيطرة امرأة هى أكثر النساء فتنة وخيالية .

٢

فى مساء اليوم التالى ، والقمر يودع لغزه على أوراق الشجر ، قاد الأمير ضيفه إلى البساتين وكانت خالية من الرواد ، والورد راقد على الأغصان والعندليب قائم على مقربة منها ، والأميرات ساهرات فى الظلل ، والأضواء خافتة ضئيلة ، والأزهار عاطرة شذية ، والليل ساكن وديع وكان كل ذلك باعثاً على إغراء عنيف ، موحيا بسحر عجيب .

جلس الرجلان على بساط تحت مقصورة مظلمة محفوفة بالأشجار الفينانة فانبعث من هناك حفيف الشجر وهفيف الحرير ؛ وبعد برهة ، انطلق من المقصورة صوت جلىّ يغنى :

الوردة فى فصلها القصير
تشرئب فوق السور ؛
والعندليب يثير دهشتها ،

حين يقص لها حديث العالم . . .
يالها من وردة سعيدة ،
طافت العالم فى الخيال ،
وهى على جناح العندليب !
أما أنا فلا أعرف الطواف والمخاطرة والدهشة
وإذا كانت الوردة قبست لونها من العندليب
فليس أمامى من قلب يقطر دماً .

وعم سكون زاخر بالظلمات والعطور ثم انبعث هذا الصوت يغنى:

كيف تحيى الزهور
قبل أن يتعهدها ربها ؟
كم فريسة للحب والأسى
فى الرياض الخليـــة
وعلى الكلأ النضير !

غنت المسلمة وكانت الكلمات — على قوة حنانها — تحدث أقل أثر فى روعة السحر الذى يشيع فى غنائها . بيد أن قلباً

حديدا كان يتحطم ؛ كان الغناء على قلبه أشبه بماء منعش ينصب على أكف تحترق بلظى الحمى . ثم تمتمت بصدحات غامضة تجرى الحرارة فى عروقه : « إننى على قيد الحياة » « إننى شاكرة » « الشباب » « الموت » . ومن المفزع أن يشعر المرء باللذة فى أغنية قاتلة كتلك ؛ لها عقب كل صمد وقفة ، هى لحظة الأحلام ، ولها لون من الأنين نغماته مبهمة ثم تمتنع عن سرد الغناء حتى يتتبع السامعون آثار غنائها . كان غناؤها كالصاروخ وهو فى طريقه إلى النجوم يكشف عن قلب محترق ثم يتساقط فى كسف من النار .

قال الشاب لنفسه :

— ماذا ! هل يوجد من يشاركنى شعورى فى هذا العالم ؟

لم يكن ما وسوست به إلى النجوم اعترافا منها ، ولم تكن تلك الألحان الوديعة تجوى إلى أحد ولكنه ضمير يتحرق فى قرار الحريم إلى سماء رحبة . لقد كان صوتها يطوى الكلمات البائحة بالشعور فى سر وديع ؛ لم تكن صريحة فى التعبير عنه ، كانت تحوم حوله ، كانت ترسمه كما تفعل خطوات الراقصة ، كانت تنفضه بيديها وهو حى فى قلبها . فى هذه الليلة البنفسجية الدافئة استطاع غناؤها أن يحمل فى طياته أسرار فتاة . لا قدرة

لها على كتمانها ، وهى فى سبيل ذلك تجمع بين القلق والرقة وتقصد القلوب بجروح لا تندمل .

لم تكن العربية تمل من معاودة أغانيها بالليل ؛ كانت تفرقها على الأزهار أغنية أغنية . وكانت الأغانى العفة كالأغانى الملتهبة بالحب تتصاعد كلها من فمها وقد مسها سقم الهذيان الذى يبلغ إلى الزفرات أحيانا ، وهى تارة كالفراشة فى حبائل الشرك وأخرى باسلة على أهبة القتال وهى تثير بهذه الحالة كل ما تنطوى عليه السماء والأرض من النشوة والاستعطاف .

على أن شيئا كان يدور بخلد الشاب : « إنها ستموت فلقد شوهدت بلابل تموت وهى تغنى . حلق امرأة ينطق بهذا ؟ كيف لا تحطمه هذه القوة ! أم أنها وحش قابع فى المقصورة تحت هذا الشجر الملتف ؟ »

٣

تحول الفتى فى هذا المساء ، فلقد كان حتى ذلك الحين يعجب بما يراه من القصور والمياه والأضواء إعجاباً لا روح فيه ولا حياة ؛ أما الآن فقد تقمصت هذه المفاتن فى نظره روحاً جديدا هو نفس الروح الذى كان يتملك قلب هذه العربية . كان يرمق البساتين بنظرة الملول والآن أصبح بينه وبين الزنبقة والسروة صلة إنسانية ، هى نفس ما بينهما وبين هذه الحورية . وأحس الأمير من جانب هذا الفتى بتجدد اللذة فى نفسه بعد أن أدرك سلطان هذا السر الخفى عليه . قال له جيوم مرة : « لقد أدركت يا سيدى وهذه الحورية تغنى أن الذين يموتون أطهاراً لا يملون أبداً من سماع أنغام السنطير فى جنة الخلد » . ولكن الأمير الطائش اندفع قائلا :

— آه لو رأيتها !

كلمة طائشة تدل على شئ من الاخلال فى تقاليد هؤلاء السوريين الذين يجاورون المسيحيين . وربما كان للمرأة العربية

بعض العذر فى أن تسلك سبيل اللهو. ذلك أنها لم تحاول أن تلطف شيئاً مما يرزح تحته الحريم من حياة الملل والجمود.

حاول جيوم أن يتجنب مقابلة كان يخشاها وكان يتمناها أيضاً، كانت تصيبه بعض كلمات هذه الأنشودة السماوية كما تصيب طعنات الرماح الفضية. « لست أنسى ما كان لأمى وأخواتى من رقة الصوت ومرونة الروح، كن كالراهبات؛ وكانت تتصاعد الترانيم أحيانا من تحت أقبية الكنيسة، كنيسة طفولتى، وفيها عنف يحبب إلىّ الموت ويدفع إليه. والآن أحس بنوع من هذه الرهبة المقدسة عندما أستشعر رؤية هذه المرأة.»

إذن لقد وجب أن يخضع الفتى لرغبة صاحب الدار ولسلطان الأقدار.

وقف جيوم، ذات يوم، عقب الظهيرة، تحت عقود فناء داخلى ينتظر مع الأمير ظهور العربة. وانتبذ جيوم رقعة من الظل طاوياً رأسه بين يديه يستعرض فى مخيلته الأنشودة الحية. وإذا به يسمع وقع أقدام سرب من النساء، وترفع ستائر العربة ويظهر ملاك الرغبة سافر الوجه. وكأنه قد خيل إليه حين رآها أن أسرار قلبه قد سبقت حسه فإن هذه الطلعة الكريمة هى التى كان غناؤها قد صورها له، أنه وجهها ذاته كما عرفه من قبل.

ورجع به الخيال إلى منابع حياتها فتصور ما كانت عليه سلالتها من وجوه صباح وتصور النجوم التى كانت تناجيها بأسرارها الخفية .

قال فى نفسه :

— إنها أختى التى فى السماء ، وإنى لابد صائر إلى حبها ولو كانت جريحة فى خدها .

بدت المرأة فى وشاح مزركش وخمر موضونة بالزمرد وكان وجهها وكل شئ فيها آية بينة على ما انطوت عليه أنغام غنائها ؛ إنه من غير شك ألحان روح قد صاغها الحب ونسقها الحنان . اللهب الخالد ينبثق من عينيها الواسعتين ، ويشف عن ثديها الصغيرين وجسمها البض قميص سماوى قرمزى . وتتشح بسترة من الذهب مزررة بجواهر كبار ، وتتمنطق فوق قميصها بحزام من البرنجق ، وتلبس سراويل من الحرير البرتقالى فضفاضة يحكم صرها عند قدميها حجال من الذهب .

أذاعت حولها بهجة مشرقة استحالت هذه البهجة من طول رسوخها فى النفس وترددها على القلب شيئاً أشبه بالكآبة ، كآبة كثيفة تكلف المرء أن يتغلغل فى طياتها حتى ينتهى إلى العوالم التى تتجاوب فى قلب هذه المرأة . وكان من المقلق للفتى المسيحى

أن يتجه نحو هذه السماء النورانية وهو الذى انغمر منذ قريب بلجة من أحلام الرغبة فى الموت .

أرادها الأمير على أن تغنى فخيل إلى الفتى أنه يرى فى حلم أن دمه يطن فى صدغيه ويغلى فى رأسه . والمرأة واقفة مطرقة تغض طرفها على صورة مرتعشة . وظلت دقائق تستعيد فى نفسها الأغنية والفتى يرقبها ويجمع من فلول قوته فيملأ بصورتها قلبه كأنه نسر صغير يجرؤ على الطيران بجناحيه الغضين . ما أروعها ! لقد جمعت الشباب والحسن وكل طهارة فى الوجود ! لها ابتسامة الفضة وزرقة السماء ولها بريق البحر فى الصباح حين يتكسر على شاطئ لبنان ؛ ووقف من خلفها سيدتان تعينانها على نفسها إذا ما غشيها أمر ، وهما تشجعانها بكلمات حانية رفيقة ، وكأن لسان حالها يقول: « إننى لا أستطيع ، ألا ترون أننى صائرة إلى الموت ؟ ! » كان لمعصمها ولأصابعها الوردية قدرة فائقة على التعبير كما كان وجهها ينم على خجل فى قرارة روحها . وأخيراً دلفت إلى زوجها واستندت إلى كتفه فكأنها ترجوه أن يعفيها من الغناء .

ارتاح الأمير إلى ما أحست به من تردد حيال وجود هذا الضيف الغريب . ولكنه بطيشه أشار إليها مرة أخرى بان تغنى

وكان المسيحى الفتى فى أثناء ذلك يحدث نفسه : « إن أذان المؤذن والمجهول فى مئذنة عالية بعيدة ليثير بكاء الغريب حين ينزل الليل . وهذا المسلم على قربه من المرأة لا يفهمها ولا يصل إلى قرارة نفسها ! ما أقرب ذاك الغريب من هذا المؤذن ، وما أبعد هذا المسلم من قلب هذه المرأة التى سيضمها الليلة بين ذراعيه ! كم أتمنى — دون أن أخدع نفسى بأمل كاذب — أن تؤثر فى نفسى وأن تظهر أجمل صفاتى . »

أدرك الشاب أنه سمع أغنية سحرية وأنه — بتأثير نشوتها الجبارة — قد كتبت له حياة جديدة .

٤

فُتن المسيحى الشاب ، وكانت لذة الأمير بفتنته لا تنقضى، قال له مرة :

— إن النقطة الواحدة من العطر لهى عصارة آلاف من الأزهار ، كذلك هذه المرأة فهى نخبة سلالة عريقة من كرائم الأمهات والجدات ، عشن فى رحاب الملوك القدماء الذين كانوا يحكمون فى دمشق وحمص وحماة . وما كانت آسيا لتستطيع أن تجود بتحفة أجل منها . هذا توفيق سُخِّر لنا ولن يظفر أحد من بعدنا بامرأة تضارعها فى حسنها . على أن فى قوصرة الورد التى غرسها الله اثنتى عشرة امرأة وكلهن ملك يمينى ، يُذعن أريج هـذا الورد ؛ وفى مقدورى أن أطلعك عليهن . فلتسمع كلمتى ولا ترحل من هـذا المكان ولسوف أعطيك ريحانة تشمها .

صرح جيوم للأمير بأنه لا يفكر فى الرحيل فقبّله الأمير قائلا :

— أيها الصديق المسيحى عُد إلى مخدعك وسترى من الليلة المرأة التى اخترتها لك . إنها ذات جمال نضير غرّ ولكنها زاخرة بالحكمة .

أحس جيوم بشئ من وخز الضمير حين ترك رفقاءه يسافرون من دونه ، على أنه قد أدى رسالته على وجه حسن وأمضى معاهدة السلام ، ومن الغريب أن عقيدته لم تكن فى وقت ما أقوى منها فى هذه اللحظة ؛ فكان يفكر : هأنذا وحدى ، أكوّن فكرة عن الملائكة ، سأركب الصعب كائناً ما كان حتى أتبوأ مكانى فى الحياة الأبدية إلى جانب تلك العربية التى تؤهلها صفاتها لحياة خالصة من العذاب فى يوم الحساب .

وإنه لمتأمل فى هذا الخاطر إذا بكرسى ، يحمله عبد ضخم ، يقف أمام مخدعه ويرفع العبد فتاة وديعة ضحوكاً راقية ، فيضعها أمام الشاب ، على إحدى الأرائك ، ولم يزد على أن قال :

— ايزابلا من قِبَل الأمير .

ولما خلصا نجيا قدمت نفسها قائلة :

— يسمونى فى القصر الحكيمة وسأدخر نفسى للذتك

وأدخر حكمتى لما هو أكثر لذة وأشد إمتاعا . لقد كلفت أن أصرح لك بأن هناك امرأة أفضل منى أرسلتنى إليك ، تريد أن يكون صوتى ووجهى ومجاملتى فى خدمتك . فان قبلت خدمتى فلتجدن فيها مجالا للمشاركة العاطفية . تركتها الآن وفى استطاعتى أن أعود إليها متى تريد . أرجو أن تأذن لى بأن أفشى إليها ما يجرى بيننا من قول أو عمل فلا تعد ذلك خيانة .

— وأنا يا إيزابلا هل أستطيع أن أعرف عنها شيئا ؟

— ولِمَ يا سيدى ؟

— هل من الممكن أن أراها وأستمع إليها وأتقدم من صداقتها ؟

— لا شك فان لديها الرغبة وستخلق الوسائل . إنها تود أن تكون مرتبطاً بها ارتباطا روحيا وأن تدع كل عناية من دون إعجابها بك . إنها لن تفقد نصيبها من سعادتك وستروض سعادتك بعناية تفوق عنايتك . ولن يستطيع أن يقاومها بشر ، فهى كالنحلة الصغيرة زاخرة بالعسل ولكنها تطير بحمة قاسية .

— أخشى ألا يكون ما أسمعه صوابا وأن أقع فى شرك شر ذمة من نساء قاسيات يسخرن من رجل غريب .

— إن نفس ما تخشاه هو ما كانت هى تتوقعه منك . كل ما يقلقك هو علمها بأنك ستخبرنى بكل شىء . لقد أعطتنى تعاليمها وأمرتنى قائلة : « عانقيه واهمسى فى أذنه أننا غيرنا الحكمة القائلة بأن الموت قائم بين الكؤوس والشفاه وأصبحت حكمتنا أن إيزابلا قائمة بين الكؤوس والشفاه إيزابلا التى قدمت إليك لتمضى معك ليالى اللذة ولتتحدث عن غرامك بعيد المنال » .

٥

امتلأت جوانح الفتى بغناء العربية وجمالها ، وملكت عليه عقله وحسه فأصبحت شغله الشاغل وظل يسأل كل مساء عنها إيزابلا دون أن تمل من الاجابة عليه .

وخشى الفتى أن يسيء الفتاتان به الظن فى أمر عرض لفكره فقال لإيزابلا :

— ألا تجدين أن من الإساءة أن أترك زملائى يرحلون وأظل وحدى فى القلعة وأنا فيها غريب الدار ؟ أخاف أن تعتقد سيدتك أنى مستهتر أسلم نفسى إلى المتعة والكسل فلتخبريها يا إيزابلا أن الفكرة التى منعتنى من العودة إلى بلادى لا أستطيع مقاومتها أو أهلك دونها . أترين أنها قد أساءت بى الظن فحسبتنى أغير دينى ؟ كل دين يأمرنا أن نقتدى بالأشخاص السماويين وإن أفضل من رأيت هم أشخاص هذه البلاد .

فأجابته إيزابلا ضاحكة :

— هون عليك أيها المسيحى الفتى ! إن سيدتى كان يسرها

لو تترك دينك من أجلها وأنهـا قد حملتك مراراً على تغييره لتعرف مدى سلطانها فى نفسك .

— إذن كل أعمالها كانت تصنعها بتدبير ؟

— أرأيت كيف استطاعت أن تبرهن للأمير على أن الغناء الذى تقدمه إليه أقوى وأروع من قصصكم التى تتسلون بها . لاشك أنك لاتريد أن تعود إلى ما كنت من قبل تفضله على كل شئ .

فكر الشاب وهو مفعم بالأسى : آه إنها حاذقة !

قدحت عينا الفتى ناراً وحدقت إيزابلا فيه بدهشة وبإخلاص ولم تكن تعرف من قبل أن تأثير المرأة يبلغ بالرجل إلى هذا الحد وأن من الممكن أن ترى كائناً خارقاً للعادة فى ثوب امرأة .

قال لهـا :

— ألا أستطيع يوماً أن أتحدث إلى تلك المخلوقة الإلهية ؟

— بلى أيهـا المسيحى الصغير ولـكن انتظر حتى أصورك عندها بأجمل الألوان وأننى أعلم أنها ستعيرنى أذناً تواقة إلى الاصغاء والشاعر يقول :

ومهما تزين القفص بالرسوم والزخارف،
فإن العصفور يبحث عن منفـذ بعينيه.

ألحّ على إيزابلا برغبته فى رؤيتها والاقتراب منها والانصات إليها فأجابته فكأنما تشعل ناراً فى قلبه :

— لاتيأس فسوف يتحقق لك هذا يوماً . فى المساء سترانا فى البساتين جالسات من حولها وحينئذ سترددد قول الشاعر :

أتلك أجزاء مسك تناثرت حول خضره
أم البنفسج قد بُثّ حول أقدام زهره

فإذا تم لك هذا فأسلم زمامك إليها فانها كحور السماء ، تسبح بحركات هينة لينة ، لا يقاوم سحرها بشر .

بعد زمن قصير أسند الأمير إلى جيوم عملا أتاح له أن يلحق به إلى الظلل وأن يكثر التجوال فى البساتين .

عملت إيزابلا يوماً على أن يمر الشاب فى وقت اجتماع الحريم فى البساتين وكان اجتماعهن فى أمسية حلوة ، تحت ظلال البستان بقمن حفلة شائقة من حفلات آسيا . البستان فى هذا المساء يتحول إلى جنة من جنان الحور ، والنساء المسلمات يتزين بالحرير ذى الألوان الوهاجة ، ويتقنعن بخمر مزركشة ، ويلبسن خفافاً

مذهبة مزدانة بالعقود ، ويتضمخن بالعطور ، ويتحلين بالمساحيق هذا سرب منهن يسرن متشامخات كالطواويس على الكلأ النضير وهذا سرب آخر يمشين الهوينى كالظباء ، وسائر النساء يلتففن حول العربية تحت شجرة الأرز كعصافير الجنة حول نسر صغير ، ويأكلن المسكرات ويلعبن النرد ؛ وللحمام والحجلى الحمراء حولهن قفزات ونقرات . والموسيقيون يخلصون إلى مكان غير بعيد ويعزفون اللحن المعروف :

تحت الأزهار يغنى السنطير ؛
وتحت الأرز يتنهد النـــاى ؛
وتحت الياسمين تنشد القصائد الخالدة ؛
وتحت النسرين يتحدث عن الحب .

استحال الهواء ساحراً من السحرة ، استطاع أن يمزج الألوان بأريج العطور وأنغام الموسيقى وأصوات الضحك . وتقدمت إيزابلا نحو جيوم وقادته بيدها إلى العربية ؛ وساد صمت رهيب فى كل أنحاء البستان واشرأبت أعناق الحسان إلى هذا الفتى ، وتهافتن لرؤيته تهافت الظباء على شطيرة خبز قذفت

لطيبة منهـا ؛ وهن لا يزلن محيطات بسيدتهن إحاطة أوراق الخزامى بقلبها الأسمر ؛ قالت له العربية :

— ياسيد تريستان ألا تعتقد أننا باقة من زهر اللفـاح والريحان والزمرد قد تألفت مزيجاً سحرياً فعالا للحب ؟

فضحك جميع الفتيات .

وخجل الفتى إذ أدرك أنهن سمعن قصة تريستان وايزولت وهو يقصها على الأمير وأنهن كن فيران المقصورة فى ليلة العشاء .

اعتقدن جميعاً أن لجمالهن أثراً فى خجل الفتى . وما كان خجله إلا من أثر الرهبة التى أورثها هيامه بالمرأة وما كان تنوع الجمال فيهن جميعاً إلا فرصة لتعزيز حبه لها ورؤيتها فريدة فى حسنها .

قالت له إيزابلا :

— انتظر ! لاتبرح .

كانت إيزابلا مشغولة بغرزة فى وشاح تحوكه للعربية ، وكان ظل الفتى منبسطاً على صفحة منه عريضة ، وقالت له بعد دقائق ثلاث وهى تلقى بإبرتها :

— أيها المسيحى الصغير ، لقد حكت بإبرتى ظلك فى هذا الوشاح .

صفقن جميعـاً لهذه الملحة وابتسمت منهن شفاه ياقوتية

ولمعت صدور ، وتطايرت خصلات شعر وكانت بعض نظراتهن محتجبة بأهداب طوال ، وبعضها مبتهجاً فى صورة رائعة . كان جيوم يرقب نقط العرق تتساقط من الوجوه الشرقية الصغيرة . وكأن حديثهن سقسقة عصافير مبهمة لم يكن يقدر على تبينها ، رغم معرفته للغة العربية ، إلا بالاقتراب منهن وتتبع تمتمة الشفاه عن كثب . فكان هذا مبيحاً له رؤية ما لتلك الثغور الصغيرة من نداوة حية ، ثغور تبرهن كما تبرهن نار الحدقات النجل ، على أن ألوان الحسن فى الوجود ليست سماوية كلها . إن ما شاهده الفتى من حرارة باطنة تشع مع نظراتهن ليس إلا صفات خاصة لهن كالأريج للأزهار والشدو للعصافير والندى لأسحار الخريف . كان يرى كل ذلك واضحاً مثلما كان يرى العقد الماسية فى حزامها وبالرغم من أنه لاحظ ما تتحلى به من حواتم وحجال من الذهب إلا أنه كان مأخوذاً بتألق عينيها الجميلتين ومظهرها الفذ الهائل الذى كان يبوئها مكاناً علياً بين النساء جميعاً . كانت تغمره بهجة عظمى حين كان يردد فى نفسه أن المرأة لم تجد غضاضة فى أن يحاك ظل رجل غريب متواضع فى وشاحها الالهى .

انصرف الفتى وبدأت كل فتاة تمدحه . قالت زبيدة ضاحكة وكانت أشدهن اغتباطاً :

— حبذا يا سيدتى أن يكون هذا الفتى كالطائر الذى يضمن الحظ السعيد لمن ينبسط عليه ظله .

وقالت بدُورة الممتلئة الجسم :

— أوه ! سواء أكان الحظ سعيداً أم غير سعيد فانى أتمنى أن أفىء إلى ظل هذا الطائر الجميل .

وطلبن إلى الحكيمة أن تستودعهن أسرارها ، ولكنها التفتت إلى الأميرة قائلة :

— وأنت يا سيدتى ماذا تقولين ؟

فلم يفلحن إلا فى انتزاع هذه الكلمة :

— إنه ذو وجه حسن ، وإنى مستريحة إلى ما فعله سيدنا من أستبقاء رهينة بهذه القيمة .

نقلت إيزابلا هذا الحديث إلى جيوم ولكنها أخفت بطبيعة الحال موضوع الرهن . فأخذ يثنى على كل فتاة منهن مغتبطاً .

قالت الحكيمة وهى تقبله :

— حقاً ، إن كل واحدة منهن ستكون ريشة صغيرة فى قبعة نصرانى صغير ، ولكن ألا تعرف ماذا يقول المثل ؟ « كل ريشة فى جسم العصفور ذات فائدة ولكن لريشة الجناح الفائدة

العظمى » . إنها « غانية الشرق » التى ستصعد بنا إلى السماء .

فقال جيوم بصوت مرتفع :

— فلماذا كانت تتضاحك طوال الوقت ؟

— اغتباطاً بإعجابك كما هو الحال حين تجد أنشودة أو وشاحاً أو ابتسامة لايجود بمثلها الزمان لغيرك . إننا نساء ، ورضى الشباب يبعث فى نفوسنا الرضى والحنين . كم تطمئن نفوسنا حين نحس أننا معشوقات !

— ولكن يبدو لى أنها غير رزينة .

— اطمئن إن لديها إرادة ثابتة .

— ففيم إذن ؟

— فى أنها تسيطر علينا جميعاً .

أصبح لجيوم حرقة إلى مقابلة جديدة لغانية الشرق فيتحدث إليها منفردا ، فلقد أفلحت إيزابلا فى إثارة الرغبة الملحة فى نفسه إذ دعته إلى أن يعبر البستان حين يحل المساء التالى ، وحين يؤذن المؤذن .

حضر جيوم الموعد وإذا بهما تقبلان نحوه وقد بدت عليهما البهجة وتجلتا فى منظر جديد حتى لقد ألقى فى روعه أنه لايعرفهما ؛ طرحا حجابيهما إلى وراء وتجاذبا الحديث مع ضحكات عالية سببت

إجفال الطيور وفزع الفراشات .

واقترب الفتى وشكر للعربية أن وهبته صديقة كإيزابلا يستطيع معها أن يبسط شعوره الخفى فأجابته بأنها مغتبطة أن تكون إيزابلا هى الرابطة التى بفضلها استطاعت غانية الشرق أن تساهم فى ربط الأمير والمملكة بصديق وفى .

انسجم الحبيبان بعد برهة . وهكذا كان الفتى يحاط علما بالوقت الذى تخرج فيه العربية للرياضة فى البساتين . فاذا حضر قبلها بحث عن زاوية تتيح له أن يراها فى أقرب وقت ، وعلى أحسن صورة . وكم كان يحس بطعنة من طعنات خنجر ، محببة إلى نفسه ، تتسرب إلى قلبه ، حين يراها تخرج من ظلتها ، تمشى الهوينى ، فتجتاز ممر البستان الشجير ، تحت الظلال والأضواء المتعاقبة ؛ فاذا ما التأم عقد الحاشية الصغيرة على بساط العشب ، أمضى الفتى معهن دقائق ، وكانت جلسته تطول المرة بعد المرة ، فيسرى تجاوب سرى بينه وبين غانية الشرق وإيزابلا فيما يجرى بينهم من أشارات ونظرات وسكوت : أحب الفتيات الشاب إذ بعثت قصته فى حياه السراى الرتيبة روحاً من المرح والتسلية وكان فى كل منهن نفحة من نفحات أميرتهن ولكن صورة غانية

الشرق كانت أكثر جلاء وصفاء : صورة سمحة سماوية ، وجه طفل سمت به بهجة روحية فتهلل سيماه وانبعث منه النور . وقد ينقضُ الليل وهن فى هذه الجلسات الريفية الحلوة حيث نقاء الجو وجمال الطبيعة يسمحان بالنعاس فى الهواء الطلق . فاذا احضر الفنى مبعوثاً من السلطان لاستدعاء غانية الشرق التف حوله الفتيات وجهدن فى إبعاده عن عالم الفكر والهواجس : زبيدة بسرورها المتدفق وبدّورة بصراحتها وحبها الخالص ، وإيزابلا وهى تعيد على مسمعه ما تكنه له غانية الشرق من حب عميق . وهكذا استطاعت شجرات البندق أن تتعانق فتصبح كرمة ومخبأ .

. . . تسمم الفتى — من حيث لا يدرى — بفعل الموسيقى والألوان والشعر والآمال . كل يوم يمضى يصيب له نقطة من هذا الداء العضال الذى لامنجاة منه . وكانت البساتين تسحر قلبه فيظل كالآلة الصماء حيال الزواجر التى يسوقها القدر لضحاياه .

٦

كيف تستطيع مملكة هذا شأنها أن تحتفظ بكيانها ؟ هل حياة القائد ليست إلا التمتع بين النساء بأريج الزهور والإصغاء إلى الأغانى الرائعة ، وإصدار الأحكام بين ابتهال اللذة وضراعة السرور ؟ هل تستطيع فتاة مهما رجح عقلها أن تسند مصير مملكة بيمينها ؟

بينما كان الأمير يستريح مع غانية الشرق ذات مساء إذ حضر رسل فزعون ينذرون بأن جماعات من المسيحيين المدججين بالسلاح ينزلون من الجبل .

ما هذا ! بعد إمضاء المعاهدة ! ماذا يكون موقف جيوم إذن ؟ بدا السخط على غانية الشرق بوجه خاص :

— فإن كانت خدعة من هذا الفتى فلابد من إعدامه فى الحال ، أما كنتُ على حق حين نصحتك باستبقائه رهينة ؟

لم تكن العربية تتكلم بهذا العنف خوفاً من الحظر المحدق فحسب ، بل كان شيء آخر ، أقوى وأهم ، فقد اعتقد الحريم أنها نجحت فى إخضاع الفتى ، واليوم ، يظهر لهن أنه يسخر منها ويغشها وهذا جرح لكبريائها وإهانة لها .

استُدعى الفتى والليل معتكر وتوارت العربية خلف ستار وتكلم السيد جيوم فبرهن على حسن نيته وسلامة طويته :

— لو كان أمير طرابلس هو الذى خالف الشروط التى ضمنتها لكم فستكون الإهانة موجهة إلىّ أكثر منها إليكم ؛ ولكنى أعتقد أن أمير أنطاكية هو الذى يهاجمكم فلا شك أنك لم تُصِبْ حين أحجمت عن التعاهد معه .

تواترت الأخبار بما يؤيد رأى السيد جيوم ويؤكد نظريته فانصرفت العربية إلى سيدها الأمير تلومه على تقصيره ، وتقارن قصوره وتهاونه بنفاذ بصيرة المسيحى الشاب .

توافد الفلاحون طوال اليوم إلى المدينة بماشيتهم وحاصلاتهم ولم يكن من حيلة إلا قبول هؤلاء التعساء وإيواؤهم فما كان للدولة جيش يكفى لحمايتهم فى قراهم ؛ كل ما لديها كان شرذمة — ما أقلها — للدفاع عن أسوار المدينة .

فى المساء طاف الأمير مع السيد جيوم فى شوارع المدينة

فاستُقبل بوجوم مفعم بالأسى والحنق . واهتمت «غانية الشرق» بالوقوف على كل شىء بنفسها فتبعتهما فى هودج . وتسلق ثلاثتهم أسوار المدينة وراقبوا العدو ، فى الأصيل ، وهو إلى جانب المدينة يعزز مراكزه وشاهدوا خيامه وحرابه وأعلامه وسمعوا زمجرة الجنود .

قالت غانية الشرق للمسيحى :

— فهؤلاء هم الفرسان الذين يريدون قتل النساء أو — على الأقل — يريدون أن يفرضوا علينا حبهم كما يريدون أن يفرضوا نير الاستعباد .

فاحتج السيد جيوم احتجاجا شديداً ، وقال إن المسيحيين الفرسان هم أشد الناس تقديراً لحرمة النساء . ثم نظر فأشار إلى علم أمير أنطاكية يلوح فى الضباب فى وسط المعسكر منقوشاً عليه صورة مذهبة للعذراء .

لحظات غانية الشرق ارتباك الفتى . فقد كان يتألم وهو يفتش عن سبيل إلى أداء واجبه حين تطلع إلى إخوانه فى الدين . أما كان واجباً عليه أن يمرق إلى ما وراء الأسوار فينحاز إلى بنى جنسه ويتجنب القتال ضد راية العذراء ؟

لم تصارحه غانية الشرق بما لحظت ، ولكنها مدت له فى

أسباب الحديث ، وكانا منفردين ، فقالت له ، بعد أخذ ورد ، بصوت حنون خاطف ونبرة هادئة خفية وهى تضرب له على نغمة الترهيب والترغيب :

— ماذا ! هل من المعقول أن فارساً مسيحياً يريد أن يترك فى وقت الشدة حبيبته التى شاركته فى رخائها ؟ إن الذى لايدافع عن بئره ليس أهلا لأن يشرب منها جرعة واحدة .

وفجأة أقسم الفتى أنه لن يتركها مهما كلفه الأمر .

رجعوا جميعاً إلى القصر ، ودُعى الفتى للاشتراك فى المجلس الحربى ، وكان رأيه واضحاً قاطعاً . قيل فى المجلس إن القلعة لاتستطيع المقاومة بحال وإن من الممكن أن يحصلوا على مساعدة عسكريه من سلطان دمشق وأن يحكموا نصارى طرابلس فى هذا الموقف . كانت كل المشكلة فى رأى جيوم تتلخص فى هل من الممكن الصبر على هذا التدخل المزدوج ؟ لهذا أكد وجوب المقاومة ، ونصح بإخلاء المدينة فى الحال وتكديس كل الموارد فى الحصن ، وكان الحصن فى زاوية من المدينة على تل مرتفع يتخذ هيئته ، وحينئذ لا يحتاج الأمر إلى عدد كبير من المدافعين حول الأمير وحريمه . ولما كان الحصن مطلا على

الخلاء كان من الممكن فى الوقت اللازم أن ينقذ أو يخلى . وختم جيوم رأيه قائلا :

— فاذا ما استولينا على جميع الموارد التى أحضرها الريفيون إلى المدينة أمكننا أن نكسب الوقت وأن نقاوم شهوراً طويلة .

ولكن الأمير عبر عن حقوق هؤلاء الفقراء ودافع عنها . فأجابته العربية :

— آه ! دع حديث العاطفة الآن للنساء واعمل على تأمين حياتنا .

وفرض رأى السيد جيوم عليهم — على شدته — وسلب اللاجئون من الفلاحين وانحازت أسلابهم إلى ذخائر الحصن . ثم تركوا إلى المسيحيين يسومونهم سوء العذاب . وكذلك فعل بالصناع والعامة الذين عجزت الدولة عن إمدادهم بالقوت . ونتج عن هذه التصرفات المجحفة أن استاء الشعب وتحمل الأمير وحده مغبة هذا الاستياء ، ومن ذلك الحين ظهر جيوم فى نظر الشرذمة المحظية القليلة التى تقيم فى الحصن فى مظهر الرجل الحازم الحكيم وانعقدت عليه كل الآمال .

وما كان الفتى يفكر فى أثناء وجوده بالمجلس الحربى إلا فى الفتاة ذات الوجه الفاتن الذى يكاد ينطق بأن الحب والهوى

المهم يستحقان تعب الحياة وآلامها ، ذلك الوجه الذى كان يتتبع بسداد وحكمة مايعرضه الفتى من آراء . ذاك جانب آخر من جمالها ، ما كان يعرفه من قبل والآن أصبح يعجب به أكثر من إعجابه بألوانها وأريجها وأغانيها .

فى لحظة من لحظات التجلى ، فى جنح الظلام فكر الفتى وهو يقوم بالحراسة الليلية : « ها أنذا أسهر بين أعداء جنسى وعقيدتى ، أشاركهم فى ملمتهم ، وما ذلك إلا لحب امرأة من خلف هذا الجدار يملكها رجل آخر ويضمها بين ذراعيه ! » ولكنه مع ذلك لا يقبل لحظة واحدة أن يتخلص مما وقع فيه من هذا الأمر المريع . لا شىء بدون غانية الشرق ، كل شىء معها ، الحياة أو الموت مع غانية الشرق .

قضى وقته فى الحصن بما فيه من حياة ضيقة مختنقة فهاج حسه ، وثارت نفسه ، واقتضت ضرورة العمل ليل نهار أن يسمح له بالدخول فى منطقة الحريم والتردد عليها .

وهناك كان كل شىء يوحى فى مجموعه بحياة قريبة من السماء ، هناك الزهور والعطور ، والشباب والجمال ، والغناء والضياء ؛ كان الفتى يرى الأمير ناعماً بين نسائه أومنفرداً بغانية الشرق . ولم تكن واحدة منهن تقرض الفتى المسيحى ولو نظرة ؛

لم يكن إلا شبحاً تقتحمه أبصارهن ، لكى تقع على الأمير مولاهن . فالنساء يؤثرنه بالضحك والثناء والعربيـة تضفى على ذلك من سحرها وفتنتها .

اختلس الفتى ليلة استطاع أن يمضيها إلى جانب إيزابلا وأسلم نفسه للشكوى :

— ما لكن جميعاً تهملننى ؟ إنها سجية تقلق خاطرى وتروعنى ؛ تجاهلتنى إلى حد ظنى ألاّ عاطفة مطلقاً تربط بينى وبينكن ؛ إنكن تتظاهرن وتحتجبن إلى حد لا أتوقعه ، لهذا لا أستطيع أن أتبين فيكن وداً ولا إخلاصاً .

— ويلك ، أقسم أننا ، معشر النساء ، لولا أننا نتقن فن الكذب لكان مصيرنا الهلاك . حين تستريح غانيـة الشرق إلى جانب الأمير على الأرائك فيصغى إلى دقات قلبها فى سكون الليل فكأنها تخشى أن يفهم سيدها شيئاً من حروف الهجاء التى تمليها هذه الدقات ، فسرعان ما تحيط نفسها بكلمات من الزهور والعطور ، تشغل باله وتشتت أفكاره . ألا تعرف ماذا كانت تقول لى أمس : « ما أشد ابتهاجى حين أتصور وأنا أرقد كالطفل الوديع أن حبيباً قد نزح إلينا من مكان سحيق من العالم يسهر على راحتى ويحرسنى فى نومى ، ويؤمن سلامة القلعة » .

— إنها ترقد إلى جوار شخص غائب لا يعرف كيف يبعد عنها الخطر .

ولكن الفتاة وضعت يدها على فمه اللافظ لهذه الكلمات الشداد وأسرت إليه وأنفاسها تتردد فى عنقه .

— صه أيها المسيحى الصغير ! مثل هذا المقال يفهم ولا يقال .

استدعت العربية السيد جيوم فى اليوم التالى ، فى أثناء النهار ، وما أكثر ما كانت تستدعيه حين يتركها الأمير إلى الحصن فتظل فى وحدتها يساورها القلق والاضطراب . راجعت نفسها فى هذا اليوم واستقرت على أنه لم يكن من سبيل إلى إنقاذها إلا بمعونة دمشق وتحكيم طرابلس ، فأضفت عليها حالتها النفسية لوناً من الخفقان والبريق لم يعهده الفتى من قبل ، وسألته حمايتها فثارت بذلك هيام الشاب المخمور بنشوة الحب . ومن خلال النافذة الضيقة ذات القضب الحديدية شاهدا بساتين العاصى : فالأزهار تموت من العطش ، والموسيقيون يلقون بمزاهرهم لانصرافهم إلى الخدمة فى القلاع . ولكن ما قيمة هذا كله ؟ إن فى غانية الشرق من الفتنة والسحر ما يغنى عن البساتين والموسيقى ؛ فى شبابها وأحلامها ما يورث الشجاعة

ويجدد القوة ؛ إنها تحيد الترنيمة التى تصاغ من النظرات الحانية والحنين الدافق ، إنها ترصد فى غبطة ، علامات قدرتها فى عيون الشاب ؛ فكيف لا تشعر مهما كانت ظروفها ، أنها سيدة القدر ؟

فى هذا اليوم سألت الفتاة وألحت فى السؤال عن أخلاق النبلاء الأفرنج وأى مكان تنزل المرأة فى قصورهم ؟ وهل لأميرة أنطاكية مثلا جانب من السلطان ؟ ثم قالت للفتى :

— أنا أعرف أن بعض النبلاء العظام قد تزوجوا نساء من العرب بعد أن تنصرن .

أضاء وجه الفتى بالأمل وامتدح لها أخلاق المسيحيين ثم أحس فجأة براحتيها الباردتين تهبطان على يديه وهى تسأله بلهجة ساذجة ونظرة نفاذة ، وصوت خافت :

— فى قصة تريستان شئ لا نفهمه ، كيف لم يتخلص تريستان من الملك مارك ؟ لا شك أن واحداً منهما كان زائداً عن الحاجة .

— ولم تسألينى هذا السؤال ؟ أتريدين امتحانى ؟

لم تجب جوابا وظلت ممتدة على حشيتها مزهوة بنشوة الصبا التى تدفعها إلى العجب دفعاً . لقد كانت تفكر فى أنها لم تخلق لذل الإسار ولكن لتحكم وتختار .

تثنت غانية الشرق بعطفها فى توثب وحماس فأشبهت تلك الأرواح التى لم تنطق مطلقاً بـ « لا » . كانت عادتها قبل أن يعرض الحديث فى مجالسها وتعاليمها والشفاعات الموجهة إليها تندفع بقول « نعم » . « نعم » مائة مرة ، ومع هذا كانت تخفى وراء هذا الضعف وذلك الخضوع الظاهرين قوة ، يالها من قوة جبارة ! أرأيت إلى نشاط النملة فى دبيبها والنحلة فى مطارها ! نشاط روح تحب السلطان وتؤثر السيطرة ولا تقبل أن يقف شئ فى سبيل ميلها الخفى الجبار ! لم تكن الابتسامة ولا الرضا ولا الخضوع ولا السحر الذى كانت تبذله بسخاء بالذى يمنعها من أن تنقب الحجر ، وتصعد إلى القمر ، وتقذف بالذين تحبهم إلى وهدة الفناء ، فذلك أحب إليها من أن يفلت من يدها سبيل الارتقاء . وجدت سيدها عاجزاً ، فانصرفت عنه بل خلعته من قلبها .

كان حكمها الذى تكنه فى ضميرها سابقاً لحكم القدر ؛ فقد حدث ذات يوم أن خرج الأمير — رغم عدم موافقة السيد جيوم وسائر المدافعين عن الحصن — إلى معسكر المسيحيين لمحاولة إشعال النار فى خيامهم ولكنه فشل وأصيب فى المعركة بجرح مميت ، قيل إن لرجاله يداً فى إصابته ولكن شيئاً من ذلك لم يتضح . ثم استطاع رجاله أن يحملوا جثته إلى الحصن .

٧

حالما وضعت جثة الأمير فى الحريم ، حضر جيوم والتفت النساء حول الجثة ، وندبت غانية الشرق الفقيد حسب المراسم المتبعة ، فسجدت عند وصول الجثة ولكن السرور والأمل كانا ينتقلان من شخص لآخر من خلال النظرات السريعة التى تتبادلها النجوم فى سماء الليل البهيم . جذبت غانية الشرق الفتى إلى غرفة الذخائر وقد كان مفتاحها عند الفقيد وهناك ، بين موارد القلعة وثروتها يتألق وجهها العاشق فى الغرفة المظلمة تألق وعاء من المرمر قد ملئ نوراً . قال لها الفتى :

— لقد أخلصت فى خدمته من أجل حبى لك . ولكن ما قيمة الكذب ؟ إننى مغتبط لوفاته .

فأجابته وهى تبعده بحركة :

— قبل كل شئ ، يجب أن تحكم القلعة .

وفى الحال بادرت قبل حدوث أية مؤامرة فاستدعت الزعماء والقواد وجلست بينهم ووقف جيوم إلى جانبها ، وأفاضت عليهم برشاقتها ما شاءت فى امتداح شجاعتهم وسداد رأيهم وولائهم. وختمت أخيراً بأن توحيد الصفوف واجب فى هذه الآونة وأن المصلحة تقضى بالتكاتف وعدم الانقسام وإلا فان مصيرهم أن يقتل بعضهم بعضاً وأن يفنيهم الأعداء :

— وإن السيد جيوم هو الذى محضنا النصح بأن نجمع مواردنا فى هذا المكان وهو الوحيد الذى يقدر أن يجلب إلينا معونة نصارى طرابلس فى الوقت الذى نستنجد فيه بمسلمى دمشق . فأنا أقترح أن نؤلف تحت رئاسته مجلس دفاع .

وفى عبارة موجزة قالت لهم بصوت نقى ، وبنظرة فتاة عذراء :

— إننى أنتظر منكم خدمات جليلة . وأما مصير نساء السراى فعليكم وحدكم حمايتهن . فهن يهبن بكم وها أنذى أدعوكم أن تتقاسموهن . ولتؤل إليكم تلك المبالغ الطائلة التى كانت تصرف كل شهر على جناح الحريم فمن الحق أن تؤول إليكم هذه الأموال .

فهتفوا للعربية ولقبوها بالأميرة تأييداً منهم وأخذوا على عاتقهم إقناع مرؤوسيهم من الضباط والجنود .

وهكذا انتقلت السلطة إلى يد الشاب دون عقبات .

وعند المساء حضرت إيزابلا الحكيمة وأخذت بيد جيوم وقادته سراً إلى غرفة غانية الشرق المذهبة . وبينما كانا يتسللان فى ظلال الممرات الطويلة خطر لإيزابلا أن ما قدمته من خدمات فى سبيل توكيد الحب بين الحبيبين قد أثمر وثبتت أصوله فروت له قول القائل وكأنها تودع هذه الفترة :

« إن زهرة الخزامى ، سرعان ما تزدهر وسرعان ما تفنى ، أما الزمرد فانه يتكون بطيئاً ويصمد للريح والمطر ويتجاوز الفصول . »

ورأى الفتى غانية الشرق فبكى منتشياً وركع بين يديها فقالت له :

— كم انتظرتك قبل أن أعرفك ! كم رددت فى نفسى بلهفة : متى يحلّ بهذه الغرفة الشخص الذى تلح علىّ آمالى أنه شريكى وأنى سأكون على يديه سلطانة سعيدة حتى آخر رمق فى حياتى . هلمّ إلىّ أيها الحبيب بين هرج الخطر وضغط الأحداث ، كل شىء هنا ملك يديك .

كان وجهها المتألق فى نقاء ، ويداها الناعمتان المخضوبتان ورجلاها الصغيرتان المجلوتان بالمساحيق ، وجسمها المصنوع من العنبر والياسمين ، كل أولئك ينشر ضوءاً كضوء مصباح خافت

فى مسجد . . وأذن الفجر وإذا بولولة النساء تنبعث من القلعة حول الجثة الملكية ، وإذا بطبول المسيحيين تدق فرحاً حول المدينة . وكل من الحبيبين فى هذه الساعة كالحمل الوديع يسترخ بين ذراعى راعيه الصغير أو كالحية البريئة المنكمشة تطلب الدفء فتنساب برفق على صدر طفل تحبه . فى هذه الساعة أشبع الفتى رغباته الروحية والجسدية وعاش فيها خارج الزمن ، وكم كانت دهشته حين قالت له غانية الشرق فى أثناء الليل ، وهى مرتفقة :

— إنك من دين المسيح والعدو من إخوانك المسيحيين فاذا حدث أن سلمت المدينة إليهم فما الذى يمنع من أن تكون الملك الأول وأن تكون حراً فى اختيار ملكتك ؟

— آه يانور حياتى ، يانجمة الصبح ، ياباب الخلد ؛ لا شك أن الناس جميعاً مسيحيين وغير مسيحيين ، يتمنون أن يندرجوا تحت لوائك ، أما أنا فسيجدوننى زائداً عن الحاجة ، فان كنت تريدين أن أفعل ما تقولين فأنا لا أحب أن أجرب هذه المخاطرة ؛ إذن لحرمت منك وأنا لا أستطيع بعد البرهان الحنون الذى يتيحه لى هذا الليل أن أحيا أو أن أموت إلا فى ظل مودتك الكاملة المقدسة .

— نعم ، كاملة مقدسة ، ولكنها لا تكون إلا مودة خارقة للعادة . إعلم ، وأنا أقولها لك صريحة فى هذه اللحظة التى تضمنى على قلبك ، أننى لا أستطيع أن أعيش بدون أن يحمل الناس الأعلام والرايات بين يدى ، لا أريد أزهاراً ولا أريد كنوزاً ، أريد أن يكون فى وجوه القوم مظهر التوقير والطاعة لا سمات الابتسام والإعجاب . أريد طاعة تنتج عن رهبة يعنو لها من يطيعنى . إننى لا أستطيع أن أتنفس بدون عظمتى كما لا أستطيع أن أتنفس بدون حبك .

بُهت جيوم ، كيف يلذ لها أن تتحدث بمثل هذا فى مثل ذلك الوقت ، ولم يسمعها قولا كثيراً ولكنه قبّلها فى حب متأجج وفرحة وثابة ، ولا غرو فلم يجد فى ثورة كبريائها إلا تحريضاً على اللذة .

وكان فجر هذه الليلة باكورة لأيام متعاقبة رائعة . وخرج جيوم من الغرفة وفى قلبه أسرارها ، والمرأة تملأ العالم فى عينيه تغريداً وتعطيراً فى الوقت الذى ماتت فيه أشجار الورد وطارت عنها البلابل . زخرت سماء القلعة بألحان الامتنان الذى ينبثق من أعماق الكائن الحى — بعد اللذة — كما تزدهر أزهار مسحورة فى الليلة الواحدة ، على سطوح المياه العميقة ؛ واستولى على جيوم شعور

عنيف بعد ما شاهده منذ حين ، من الإقبال السابغ واللطف الغامر ؛ شعور يوعز إليه أن من الخير أن يتجنب — نوعاً ما — وهو مسرور ، هذا الإقبال وتلك الملاطفة ، فلعله يتمتع بهما على صورة حسنى ، فيعيش فى خيال من الحب والجمال أقوى وأشد مما فى الوجود والواقع ، ولكنه بعد برهة يتصور أنه سيتطلع إلى رؤية حبيبته فيتحفز للقائها ويجمع بجانبها فلول قوته ، فهو يقلق وينطلق بالغناء ويستعيد بذاكرته ، فيبارك السماء على منتها ، ثم هو أحياناً بعد فسحة من الراحة ، وبعد تنفس عميق ، وبعد نفاد المناعة التى يدّرع بها والزاد الذى يتزود به ، وتحت ألم التهديد الضيق الذى لا يحتمل لا يلبث أن يحن إلى العربية ويعاود إليها الكرة لكى يُرجع الثقة إلى نفسه بصوتها ، ونظراتها وكل شىء ينبعث من جسمها وروحها .

توقع الحبيبان فى كل لحظة أن تقوم ثورة داخلية أو ينتصر المسيحيون المهاجمون . وخلق هذا الخطر المستمر والتهديد المحدق شعوراً فى نفس غانية الشرق ، لست أدريه إلا أنه لون من النشوة الرقيقة ؛ وخلق فى نفس المسيحى اندفاعاً عنيفاً من اللهفة ؛ وخلق فيهما معاً الغيرة الجنونية التى يحس بها المسرعون

إلى الفناء إذ يتمنون أن يتغلبوا على قِصَر الزمن بعنف الهوى فيصيحون : « إذا ما حطمت الأقدار قوانا فلأن يكون من جراء العشق أحب الينا من أن يكون من ضربة دامية تحطم منا لقوة وتنزع سلاح الحياة »

ما أشدها مضايقة حينما يقبل نساء السراى مجتمعات فيرفعن ستائر الغرفة المذهبة ويقاطعن ما فيه الحبيبان من حلاوة ولذة ! فيروين لغانية الشرق ما يصادفنه من لذة وألم فيما ارتبطن به من علاقات جديدة . ولم يكن من شيمتها أن ترفض السماع من هؤلاء الفتيات المخلصات فإن مساس كرامتهن قد يؤدى إلى شىء خطير فى حياتها ، لهذا ، كانت تجاهد نفسها على أن تقبل عليهن برهة من الوقت ثم تسلم نفسها لما هى فيه من نشوة وخيال . فكانت هذه المجاهدات النفسية التى كانت تخشاها أروع تصريف لأحلامها . إن فراشة الليل فى اندفاعها البرىء لا تبالى عندما تضىء الشعلة .

تحرق جيوم للاستماع إلى الفورة الممتعة التى يحدثها هذا الذهن . إنه فى نظره فريد لا نظير له فى العالم بما فيه من مزيج من المكر البرىء والحلم الوديع الطائش . ولكن سرعان ما كان يفكر : « إننى لا أريد أن أراك ولا أن أسمعك ، ولا أن أتنفسك

أريد منك السكوت والصمت ، أريد لو أن عيني مغلقتان وأذني لا تسمع ، من لي بحاسة سادسة أكثر رقة وأشد إرهافاً ، تحس مابين القلب والقلب حتى أكتسب معرفة لك وقرباً منك . »
كل هذه الرقة والإبداع والحركة الدائمة كانت تلح عليه إلحاحاً مرهقاً ليستمع من اعماق غانية الشرق إلى ما يؤثره على كل الأضواء وهو النغمة الحقة لروح غانية الشرق .

كان يخيل إلى الفتى ، قبل الحصار ، أن غانية الشرق ، وهي تحت السيف المسلط على الرقاب ، ستنفجر توسلا وتخر ساجدة عارية الساقين مشدوهة الثغر ، وستضطر تحت تأثير الرهبة أن تخضع لكل أمر ، ولكن ، حين كشرت المصائب ، تكشفت غانية الشرق عن روح ملوكية تصر على توجيه القدر وترفض قبول أي شيء ينقص من قدرها ، روح عنيفة فياضة لا حد لها . إنها تطوي في أفكارها الباطنة عقلا أشد نورا ، كان يقدرها على أنها فضيلة حية ؛ وأنهما حبيبان يفضل كل منهما الآخر على نفسه ، ويرغبان في أن يموتا معاً حتى تزدهر حياة واحدة أشد جمالا ، ويطلبان اللذة مع التحقق من أنهما يفنيان إنسانيتهما فيها حتى تنبثق عن كائنات سماوية . . . إنها أول لحظات سامية من حب متحقق . كان كل شراب الكبرياء

السحرى ، والأدب الساذج والنشوة الناعمة التى كونت منها غانيـة الشرق سحرها وفتنتها إلى الآن ، ترحب بتمثل الموت دائماً لتزيد قوة على قوة . لقد كان فى مخيلة جيوم أنه يحظى ، بين ذراعيه ، ببطل فتى .

وقضى العاشـقان الليالى والأيام وروحاهما ترفرفان إلى أسمى الدرجات متآلفتين متلاصقتين ، وكانت غانية الشرق تغنى :

ليتنا نستطيع أن نمزج أنفاسنا الأخـيرة ،
كما نمزج الآن أقرب لحظاتنا بالحياة .
ونختم فى راحة واطمئنان ، تحت صخرة واحدة ،
وحدتنا التى لا تنفصم .
فإذا أبى الحظ السيء إلا الفراق ،
فعبثاً يحاول ، فلن يصيبنا إلا التعذيب ،
دون أن يصل إلى تفريق وحدتنا .
فإن نشوتى تسربت فيك
ونشوتك تسربت فىّ .
وتركتُ قلبى يأخذ من قلبك علامة خالدة ،
فلتذهب ولتهرب فإنى متشبث بك

أمين عليـك كأنك تحملنى معك
ذهابك وغيـابك مرتبطان
بعضهما بعض بمحض إرادتى !

كان جيوم وهى بين ذراعيه يستمر جاهداً فى مطاردتها وتتبعها كأنه لم ينل منها وصالا ، وكانا يتناجيان وهما مجتمعان كأن نهر العاصى قد أوقع بينهما بالفراق .

٨

لبث الحصار ، على عنفه ، ستة أشهر . ولبث العاشقان فى هذه اللذة ثلاثة وأراد القوى القدير أن تعترض صخرة ضخمة طريق الماء فى القناة الجارية تحت الأرض وكانت تحمل الماء من الجبل إلى القلعة ، فمنعت الصخرة وصوله إليها .

ولاحظ عاملان هذه الكارثة فلاذ أحدهما ، وهو فى غمرة اليأس ، بالهرب إلى صفوف الأعداء ، وطير الآخر ، وهو فى هول الفزع ، الخبر إلى جيوم ؛ وحاول جيوم بالوعد والوعيد أن يمنع انتشار هذا الخبر المشئوم بين المدافعين . ولم يخبر إلا غانية الشرق ؛ قال :

— فإن البئر تحتوى على ماء لمدة ثمانية أيام وبعدها نذير الموت . لقد حلت ساعة التصميم على شىء . لنهرب معاً إلى دمشق فالسعادة تنتظرنا هناك .

وبهت الفتى حين رأى الفتاة فى مظهر الجد والانقباض .

قالت :

— شهد الله أننى على أهبة أن أدع من أجلك كل ما أملك من غنى وسلطان ولكن لماذا ، إذا ما عجزنا عن المقاومة ، نفكر فى اللجوء إلى دمشق وندع الانحياز إلى الرؤساء المسيحيين .

فأجابها :

— إذا قضت مشيئة الله أن نفقد ما هو فى أيدينا اليوم فهل نضحى بحبنا هذا الحب الذى لا ينازعنا فيه أحد ، والذى هو أول ما نملك فى الحياة ؟

— إذا شئت أن تأخذ ما نملك فإن جوابى نعم على كل تمنياتك علىّ .

— لا تتهمينى بأننى أتمنى . بل اتهمى الضرورة التى تلجئنا إلى ذلك .

— أية ضرورة ؟ فيم يسبح فكرك الخفى ؟

— لا فكر خفى من أجلك . إننا إن بقيتا هنا فخير ما يمكن حدوثه هو أن تدخلى فى فراش أحد الغزاة وما علىّ حينئذ إلا أن أشاهد ذلك يحدث نصب عينىّ .

— إنك لا تلحظنى أبداً بقلب مخلص .

— إذن لنهرب إلى دمشق . أسلم طريق أن نلوذ بالهرب .

— لن أستطيع الذهاب إلى دمشق .

— إنك ستكونين كوكب الأمنية الذى يهدى القافلة .

— لن أكون ملكة فى دمشق .

— شاركى حظى ، أسعديه ، كونى السماء الصافية لأيامنا العواصف ، إننى أتوقع مستقبلا ملكيا لنا . ما أشد ذهولك وأنت تصغين إلى ، دعينى أضمك بين يدى ، وأقف قِبَل نظراتك ؛ دعى صدرك المرتاب يتسع لأملى الملتهب ، ألا يغمر قلبك إيمان بالقوة حين تشهدين جراءتى وقوة تأكيدى ؟ حسب ابتسامتك ونبرات صوتك أن يصرفن الحظوظ العاثرة . كونى جميعاً لى ولا تسلمى نفسك إلى هواجس اخرى .

— إننى قريبة منك وحدك وها أنذى الآن موجودة ولست بنائية عنك .

— يبدو أن الدموع تهرب من عينيك .

— لقد دنت لحظة الوداع فلا تنس هذه الساعات فقد تتعانق هنا للمرة الأخيرة . ولأكف الآن فإن دموعى تنهمر حين ألاطفك . إذهب واذكر أننى كنت أبكى وأنا أعانقك .

فى هذا المساء صعدا إلى برج القلعة كعادتهما ، وكانت ليلة من الليالى السورية الزرقاء . وفى هذه المرة كانت غانية الشرق تتصنع الاهتمام بحديث الشاب . فلنظرتها ، ولهجتها طابع آلىّ . وأسلمت يداً لاحياة فيها فى يدى الفتى . وبدا أن روحها منصرفة إلى وجهة أخرى . لقد ظلت الأسابيع الطوال من قبل وهى تذوب رقة ودعة ، وتألق حب ، وحرارة هوى ، ولكنها الآن ذات وجه شاحب لا يزدهر ، سامم لا ينشط ، راس لا يتحرك ، يعلوه لون من الصفاء القاتم وهى الآن تستسلم إلى حلم جديد لا يتفق مع أمنية العاشق . فماذا كان شعورها ؟ إنها لم تكن قلقة ولا حزينة ولا منزعجة وإنما كان حلمها الجديد من طراز آخر أعمق وأهم . أو قل إنها روح صممت على أن تشق طريقها وحدها بعد أن عرفت أن الارتباط الذى عاشت فيه ردحاً من الزمن فى طريقه إلى الزوال . مثلها كمثل القائد الذى عجز عن إعادة المتذمرين إلى لواء الطاعة فلم ينزل إلى درك المناقشات التى لا طائل تحتها . لقد أصبحت غانية الشرق امرأة أخرى ليس للفتى بها عهد . ولكن أصبحت لها مرونة عجيبة فلم يكن من اليسير أن يسبر الفتى حلمها العميق . ولم يكن تألم الفتى من هذا الأمر يبالغ حق القلق والانزعاج ، فقد كان يقدر — بسذاجته — أن

الحب بينهما متين لا يتسرب إليه ضعف ، واستغلت المرأة هذه العقيدة فاستطاعت أن تتهرب ، للمرة الأولى ، تحت هذا الغطاء الثلجى فاتخذته ستاراً أمامه .

وجلجل صوت رهيب ، على حين غرة ، يشق جوف الظلام وإذا به صوت أحد القواد المسيحيين ينـذر المدافعين وهو واقف على صخرة أمام القلعة :

— ستموتون عطشا ؛ سلموا إلينا المدينة ، شاركونا ذخائركم ثم اذهبوا أحراراً ، لا نريد إلا نساءكم ، ما عليهن من بأس فمن شاء منهن أن يتنصر وإلا فلهن ما شئن .

وأصابت هذه الحماقة جيوم فى صميم قلبه ، وما كان أبلغ هذه الإصابة حين لمح جيوم فى غانية الشرق امرأة جديدة . لقد كانت منذ قليل ساهمة الوجه كئيبة الأحلام ، فإذا بها الآن لا تتحرج من إعلان الخصومة فلم تعد أهلا لأن يشق بها الفتى ؛ ففى الحال رفعت وشاحها وأزاحتـه من على رأسها . ولو كانت امرأة أخرى لقذف بها الفتى إلى قاع البرج . ماذا ! هل تريد هذه المرأة أن تكشف عن وجهها ليلمحها ذلك العدو ؟ العدو الذى يجب أن تجفوه وأن تخشاه ؟ سألها الفتى فى ذلك حين أقبل المساء فأنكرت ، وهى متماسكة ، ما كان هو متأكداً أنه رآه .

هل من الممكن أن تكون مضطربة إلى درجة الهذيان ؟ وهل من الممكن أن تنقلب صورة مباينة كل المباينة للمرأة السامية الرصينة التى كان معجباً بها منذ بداية الحصار ؟ ولكن الخطر الداهم والفزع المحدق اللذان يغزوان الحصن قد صرفاه عن هذا التفكير الممض فان خطورة الموقف قد برزت الآن بأقوى مظاهرها .

قال المؤرخ : « وكان رجال القلعة كالسكارى ، لا يفهمون ما يقال وانصبغت وجوههم بالسواد وفقدوا كل سيطرة على أنفسهم فأصبحوا يترنحون كأمواج البحر » .

ومل السيد جيوم الأحاديث التى ظل يهرف بها هذا الأحمق على الصخرة ، فأوعز إلى أحد الرماة أن يترصد له . ولم يكد يراه الرامى حتى قذفه بسهم طرحه أرضاً . فصاح الفريقان : « لقد قتل أمير إنطاكية » ولكنه — بالأسف — كان لا يزال حياً فقد آثر فى اليوم التالى أن يحمل إلى صخرة أخرى ، قريبة من السراى ، وهناك صاح فى المسلمين إنه لا يزال فى صحة جيدة وليقتلنهم شنقاً وليستحيين نساءهم .

ومع هذا فكان كثير من العرب يرجون المسيحيين من خلال الأسوار أن يمنحوهم قليلا من الماء فكان أكثرهم

يجيبونهم : « ألقوا إلينا بشىء يعجبنا » فكان العرب يقذفون ما عليهم من ثياب وحلى وما لديهم من نقود ، ثم يدلون السلال من أطراف الحبال حيث يضع المسيحيون لهم جراراً من الماء . وبذلك نشأت علاقات ، لاحظها جيوم نفسه ، ولا سيما بين حاشيته وبين زعماء المسيحيين فشدد فى منعها وأنذر بالعقاب وسيطرت عليه فكرة الهرب من هذا اليأس .

كان قد عقد النية على الهرب منذ زمن بعيد ، وذات صباح اصطحب غانية الشرق وإيزابلا إلى غرفة الأموال وغلق الأبواب وقال لهما :

— لقد ضاعت القلعة ، ولكنى سأنقذكما مع أثمن الأشياء المكدسة هنا .

فصاحت غانية الشرق :

— ماذا ! هل بلغنا إلى هذا الحد ؟ هل ألقينا بكل سهامنا فى هذا الصراع ؟ لن أبرح هذه البلاد ولو بقى فى السماء نجمة واحدة . إنى مصرة على الاشراف على نهاية أملنا الأخير .

— لا أمل إلا فى الهرب ، فلتجمعا كل ما تستطيعان حمله من الذهب ولتتقلدا ما شئتما من النفائس واللآلىء ، ولسوف نعيش ، فإذا كان لا بد من الموت فلتكونا ألمع جثث بكت

عليها الملائكة ! سأعطيكما بعد ساعتين إشارة الرحيل .

وكانت خطة جيوم التى عرضها عليهما : إن المحاصرين لقلة عددهم لا يستطيعون أن يحتلوا جميع ثغور القلعة . فخير سبيل أن نشد على الأعداء بهجوم عنيف نحصرهم به أمام المدينة ، ولا شك أننا سنرتد على أعقابنا ولكننا سنعمل على الصمود حتى الليل فنتقهقر إلى القلعة تاركين المدخل الأول . ففى الوقت الذى تنشغل فيه قوات الأعداء فى المقاومة فى هذه الثغرة سيخرج من الممر الخلفى الفتاة العربية وبيزابلا وقليل من الحمالين ثم بعد برهة يدركهم الفتى منفرداً على معبر العاصى الثالث .

كانت غانية الشرق لا تصغى إليه وكانت عيناها اللتان طالما امتلأتا بنشوة حنون تتنفسان عن أمر جسيم وذهول عجيب .

فكر : « إنها على حق ، أسعدتنى بحبها ثم ضيعت عليها سلطانها » .

قالت له وهى تضمه بين ذراعيها :

— إنى أشكرك على حسن طويتك وكن على يقين أنك لاتنفك عن فكرى حتى ألقاك ولن تهتدى إلى صديق أفضل منى .

ولم يكد ينصرف الشاب حتى انفجرت عواطفها فأصبحت تحدق وهى لا تبصر وتفتح عينيها على ظلمة وسواد ، وبداها

باردتان فى يد إيزابلا التى تدعوها أن تفيق وقد استولى عليها دوار شديد ؛ لقد أصبحت قطعة حية من الانفعال والفوران .
قالت وهى لا تملك أعصابها :

— هل قدر لى أن أنتهى من أن أكون غانية الشرق ؟ هل ينبغى أن ألوذ بالفرار ذليلة ، وأخضع للأقدار صاغرة ، وأسلم نفسى إلى حكم إرادة تشك فى قوتها ؟ إذن فسأفقد عرشى دون نضال ، وسأقبل هذا التبذل وأنا المترعة بالسعادة ، أنا التى كنت أثور إلى درجة الألم حين يلوح فى الآفاق مجد محرم علىّ ، سأنحدر إلى ظلام حالك وإلى مأوى رخيص وإلى غيب مجهول ، مع قلب يتلظى نشاطاً إلى النور ويثور حرقة إلى القمة . سأكون بجعة قذرة شطت بها النوى عن ينبوعها الأول ، وسيكون ذلك إقراراً بحطتى . سأجلب على اسمى الشفقة بدلا من الحسد . سيتطرق إلى نفسى ضعف ثقتى بقوة إغرائى وتأثير سحرى . . . لا . لن أستطيع . فإذا أتاح لى ذلك حبى فإن غرورى ليمنعنى . إن حبى يقبل (نعم) ولكن صوتاً ينبعث من مكان أعمق من هذا الحب يقول (لا) بصوت خافت عنيد ، أعمى ، لا أستطيع أن أكتمه . يلح علىّ هذا الصوت أن أتجنب القرار ، ويفرض على ان أكون سلطانة آمر وأنهى ... قضينا ليالىَ معاً مرت بنا سراعاً !

وأشرفنا معاً فى حبنا على أصيلين متلاصقين كجوهرتى عقد . أما أيام الذل ولياليه فلا قبل لى بها حيث تتساقط لحظاتها نقطة نقطة لتكون على قلوبنا برداً وسلاماً .

امتزجت هذه الأنغام الشجية بضجيج المعركة المنبعث من الخارج والذى كان يتصاعد ويتقارب فى كل دقيقة تمر ، وامتزجت بولولة النساء التى كانت تتجاوب بها أنحاء القلعة .

قالت إيزابلا :

— لنسرع يا غانية الشرق ولتستجيبى لعاطفتك ؛ دعى ما تمليه عليك إرادتك الملحة ؛ أسرعى ! وإلا قتلنا .

ولكن غانية الشرق تمتمت ذاهلة وعيناها ثابتتان سابحتان فى سريرة نفسها :

— لاتخافى . ألست أنا التى خلقت لكى أنزع سلاح العالم ؟

وسرعان ما اختفت فى الحريم وانبرت إيزابلا ، دون أن تصغى إلى كلامها ، تحفن الأموال والنفائس بيديها من الخزانة الضخمة وتصرها فى مناديل هندية وملافع حريرية فارسية . وبعد هنيهة رجعت غانية الشرق مزدانة بالكليل وشعرها مرسل على كتفيها ، سلطانة تسلم زمامها وهى تشتعل باليأس وتلتهب بالغرور . وغلبت على إيزابلا صيحة إعجاب وألم .

— كم أنت جميلة يا غانية الشرق !

— ألم أقل لك إنه ينبغى أن يكون كل منا جثة ساطعة . تقلدى هذه الجواهر وضعى فى معصمك هذه الزمردة والبسى هذا الخمار المذهب .

— ولماذا نتزين يا أميرتى ؟

— لعُرسى أو لجنازتى .

قرع الباب فى هذه اللحظة أحد رجال جيوم . وأصدر إلى الفتاة الأمر بالخروج إلى جهة ما بدمشق ، وكان جيوم حينئذ مشغولا بتنفيذ برنامجه خطوة خطوة .

أطال فى وقت دفاعه لكى يتيح لها الزمن للرحيل ثم تسلل فجأة من الطريق الذى رسمه لها هارباً من القلعة ، وتابع الطريق فى لهفة .

رافقه خادم واحد وظل فى سيره يشتاق إلى لقاء محبوبته وحاشيتها . وفى أثناء الليل ، عند المعبر الثالث لنهر العاصى ، وصل إلى المكان المرسوم .

لم يجد الفتى إلا مياهاً ترتطم بالصخر وصحراء تزخر بالغربة والإيحاش . لا أحد ! ماذا أصنع ؟ أأعود إلى القلعة وهى الآن نهب للغزاة ؟ نعم كنت أفعل لو أننى تحققت أن غانية الشرق

قد ضبطت فى أثناء هروبى فحجزت فى القلعة . ولكن ربما أخذتها رهبة الموقف فانفلتت بسرعة إلى دمشق وآثرت أن تقابلنى هناك صدفة على أن تتبع آثار الطريق المرسوم . وربما ضلت الطريق وستحضر بعد قليل ... كاد الفتى يجن ، ولم يرجع إلى صوابه إلا لكى يتهم نفسه بأنه فقد بتفريطه وسوء تقديره المرأة التى كانت تحبه وتسلم إليه قيادها . ودار بخاطره ما عسى أن يمس العشيقة من ضر ، وأحس بنظرات الغزاة تقف على وجه الأسيرة العارى .

ولمع شعاع القمر السحرى على الرمال . وانتظر ساعات قاتلة وأخيراً ، عند انبثاق الفجر لم يجد حيلة إلا أن يستشير :

— يا ذكرى أمى ! ألهمينى سواء السبيل . أين أجد الحقيقة ؟

وقرّ فى روعه أن يذهب إلى دمشق ولم يحبب أن يشك فى لقائها هناك .

٩

لم يجد جيوم فى دمشق الفتاة العربية ولا أى بيان عنها . هل ماتت ؟ أو لا يزال جبينها الساطع ، المتطلع إليه ، منكساً فى ذل الإسار ؟ لم يحر جواباً على هذه الاسئلة . ولقد كان هو أول من أبلغ أهل دمشق أنباء الكارثة التى حلت بالقلعة .

وقد عللوا حدوثها بأن الله قد أرسل الملائكة المقربين ، جبريل وميكال وإسرافيل لينتقم بعدله من أمير القلعة الذى تجاوز حدود ما أنزل الله . وأراد سلطان دمشق أن يتحرى هذه الأنباء فدعا جيوم إلى ديوانه فقص له كيف أن القلعة كانت تتلهف إلى معونة السلطان وكيف نفذت آخر حيلة بما أصابهم من ظمأ شديد فقرر مجلس الدفاع تحويل الذخائر إلى دمشق ، ولكن حدث أمر جلل فقد أخلفت ميعادها امرأة من أنبه نساء الحريم ، غانية الشرق المشهورة ، وكان يثق فيها

الأمير كل الثقة . ثم أظهر جيوم استعداده للعودة إلى القلعة ليفاوض القوم ويرجع بالفتاة العربية بعد افتدائها بالمال .

كان جيوم كالكرة لا تكاد تصك الحائط حتى ترتد إلى مكانها الأول فهو لم يكد أن يطأ أرض دمشق حتى فكر فى الرجوع إلى القلعة ، غير أن السلطان ، وكان طاعناً فى السن ، قصير القامة ، أحمر الأنف ، رأى الخضوع لإرادة الله التى قضت بهزيمتهم قبل أن يرسل المدد إليهم . أما افتداء امرأة بالمال من هناك فلا أفهم لها معنى . . . وأردف قائلا بنغمة ساخرة :

— أترك للمسيحيين حسان المسلمات فما أصدق قول الشاعر :

ويعجبنى صُنع الندامى إذا طغى عدوٌ أذاقوه كؤوس غرام

دع الجمال يصنع ما يشاء وسترى بعد قليل .

خصص السلطان للمسيحى الشاب منزلا على ضفاف نهر بردى الذى يروى واحة دمشق ، وأصدر تعاليمه المشددة بألا يبتعد عن المدينة وأن يحضر لزيارة السلطان فى فترات منتظمة .

كانت بساتين بردى ، فى دمشق ، من أجمل أمكنة الإقامة ،

حيث كان حيران جيوم يقضون نهارهم فى لذة التمتع بالنبيذ والموسيقى والحسان ، ولم تكن للفتى لذة إلا فى الذهول والانطواء لغياب محبوبته ، فهو لا يستطيع أن يطرد الفكرة التى تسيطر على ذهنه فى كل لحظة : « لماذا لم تحضر فى الميعاد ؟ هل ماتت ؟ فان كانت على قيد الحياة فلم لم تلتمس السبيل لمراسلتى ؟ »

كان لا يحس إلا بآلام الحب . ما أشبه لذات دمشق بمذابح القلعة فى نظره ! كلاهما بعيد عن روحه فليس فى المنازل الناصعة والمساجد القائمة والمياه اللامعة والعشب الكثيف والضوء الذى يغمر المدينة ، ليس فيها جميعاً ما يعجب وما يطرب إلا بقدوم الغائبة حتى تشاركه الإعجاب بهذه المناظر ؛ وما تفوح الأزهار وأشجار البرتقال وأشجار الناز إلا باليأس حتى تعبق بأريجه الفتاة . إن فى دمشق — كما يعترف هو — مجالا كبيراً للذة والسعادة ولكنها كانت فى نظره تختاً صامتاً لم يأته الإذن بعد باشارة البدء .

فإذا شقشق الفجر ، بعد نومة قصيرة ، انبعث نباح الحزن فى جوانبه ، وفى طهارة الصباح والعذوبة متألقة ، والأضواء راتعة فى الماء ، والغصون عاملة على تمزيق هذه الأضواء ، يسائل

نفسه : « لماذا لم تمت ؟ بأية طفرة أسرع إلى حتفى ! » فاذا تمشى فإلى غير قصد ، يردد الشعر الذى كانت تنشده العربية ، والألم يشعل ناراً فى قلبه ؛ يسمع ما يمس حلقها الرفيق من صوت ذائب ونفس لطيف ونغمة رطبة وينظر إلى قسمات وجهها الهادئة وهو فى منظره الجانبى ، وإلى أهدابها المسبلة فى وجه وضىء فتىّ ، وإلى ما يعتلجها من لذة وألم وحركة ، وإلى يديها اللتين تثيبان إلى النفس الرقة والعذوبة . فيحس فى جزع بسهام الجمال مرشوقة فى لحمه وقلبه . فاذا وجد نفسه فى الشوارع الضيقة التى يخيم عليها السكوت والغبار جد فى سيره وأسرع فى خطاه هرباً مما يستولى على فكره من هواجس قتالة وشغل شاغل . وكثيراً ما كانت تحطمه الذكريات وهو فى وضح النهار فيقع فى سبات عميق نتيجة الجهد الجسمانى العنيف . فإذا حل المساء وهفت نسمات تجدد على نهر بردى انطلق الأذان يتماوج على المدينة فيحكى الأمنية التى تتصاعد من قلبه نحو السماء . وما كان أكثر تفكيره فى الموت والحياة حين يسير فى طريق حلب بين أشجار الحور والصاج سيراً ينتهى إلى أقصى حدود البساتين ؛ وحين يجلس قريبا من ينبوع الزينبية حيث يتوافد أهل دمشق فى آخر الصيف ليشربوا من أعذب ماء فى الواحة ،

وهنـاك يترقب الفتى الوجوه التى تيمم شطر بلاد آماله .

وفى ذات يوم ، حضر فى هذا المكان نفر من اليهود آتين من القلعة فرووا أخباراً شتى عن المذابح التى أجراها المسيحيون قبل أن يحتلوا الحصن . قالوا :

— ولـكن حدث بعد أن خربوا ما خربوا أن توقف قائدهم فجأة ، وبطريقة غير مفهومة ؛ فأطفأ الحرائق وجمع الأحياء فى سوق البهائم . . .

وشرب جيوم جرعة من الماء وسألهم وهو يسمع نبضات قلبه عما حدث لنساء السراى فأجابوه بأنهن وُزِّعن على قواد المسيحيين .

— وغانية الشرق المشهورة ؟

— وزعت كأخواتها .

إذن فهى تعيش ، هى على قيد الحياة ! وأسلم نفسه إلى لذات لا تحد بعد أن تحقق من وجودها . ثم بدأ القلق المدلهم يزحف من أعماق نفسه وهو ، بين لحظة وأخرى ، يلجأ إلى القول : « إنها لا تزال حية ! » هذه الحقيقة كان يتمثلها فى خيـاله ويملأ بها فكره ويلقى بهواجسه الأخرى فى جنح الظلام .

وعاد إلى منزله وأسلم نفسه إلى مهاده ، واستغرق فى تأملات عميقة طوال أربع وعشرين ساعة . وكان يهجس فى أثناء الليل : « لا أعتقد أنها تود من صميم نفسها أن تبقى زمنا طويلا كهذا ، دون أن تحن إلى اللذة وتصبو إلى الحب ، ولا أعتقد أن أحداً ممن تعيش معهم الآن يقبل ما هى فيه من التحفظ والاحتراس . » ساورته فكرة ذات صباح أنه سيلتقى بها يوماً ما وسيموتان بالسعادة إذ يطيب لهما العيش كل إلى جانب الآخر . إنه يريد أن يتسلل إلى معشوقته وقد غلبها النعاس ليقرأ على وجهها الوديع مدى ما تستحقه من ثقة . كان يكبت نفسه على الامتناع عن هذه الخفة وسوء الظن حتى يكون جديراً بهذا الحب الكبير . كان يكبت نفسه أيضاً للبحث عن وسيلة للوصول إليها وافتدائها بالمال .

وإنه لغارق فى هذه الآلام إذ حضر رسول من السراى يفجؤه بدعوة سريعة للمثول بين يدى السلطان فسطع أمله وظن أنه سيوفده إلى القلعة .

ولم يكد يدخل بهو الاستقبال حتى صاح فيه العجوز القصير متهللا :

— عندنا خبر طيب ستدهش له ؛ إن زعيم المسيحيين يعشق

غانية الشرق كما تعشقه إلى حد الجنون ، غانية الشرق محبوبة الأمير السابق ، ويقال إنه واقع تحت نفوذها المطلق .

طعنت هذه الكلمات الفتى بآلام جسام وجوى ممض :

— لست أدرى ما يوجب الدهشة من فتاة فى هذا العمر وهذا الجمال .

— بطبيعة الحال ليس فى هذا ما يدهش ولكن موطن الدهشة فى أن كليهما يعملان باتفاق تام على تنظيم الدولة وتنسيق بساتين العاصى .

واعترت جيوم نوبة يأس مع أنه كان فى دخيلة نفسه لا يصدق شيئاً من هذه الخيانة المعنوية ؛ غير أنه كان يجن بمجرد ذكرها . فما كان يقال عنها من كلمات ولو كانت مكذوبة إنما هى إهانة لها . قال فى حضرة السلطان إنها فتاة تستحق الموت ولكن السلطان لم يشاركه هذا الرأى .

— إنك مسيحى وأريد أن أبوح لك بسر منعنى الحذر من إفشائه لرجالى . إننا لانستطيع أن نتعاون مع إخوانك فى الدين .

ورسم السلطان سياسة لاتفاقية اقتصادية ، كما نقول اليوم فوافقه جيوم على خطته وحبذ رأيه وعرض له أن يعود من جديد إلى القلعة لكى ينشئ حلفا . ولكن الشيخ هذه المرة أيضاً ، آثر التأجيل .

استثار رفضه السيد جيوم فأخذه الحماس وطفق يلح عليه فأثار حفيظته وطرده من مجلسه بعد أن أمره أن يكون فى المستقبل أرجح عقلا وأكثر صوناً لمزالق لسانه .

وفى ذات ليلة ، بعد أيام قلائل ، كان الفتى نائماً ، فإذا به ينتفض جالساً على الفراش يحاول إقصاء صورة كانت تروعه . شىء غامض يحدث هناك بجانب العاصى ، شىء لا يعرفه بالضبط ، شىء وضيع فاجع كان يمضه ويقض مضجعه ، شىء لا أمل فى إصلاحه . هل تتألم ؟ هل تموت ؟ أم هى على حال أسوأ من ذلك ؟ هل هى سعيدة ؟ هذه حالات متماثلة عنده لا يستطيع أن يرجح إحداها على الأخرى . ولم يذق فى هذه الليلة طعم الراحة فذهب إلى الحمام فما ظفر بالراحة فقد قر فى يقينه أنه تنبه إلى نبوءة خطيرة . وأخيراً فكر وهو فاقد الوعى : خير لى أن أذهب إلى السراى بالرغم من أن هذه اللحظة غير مناسبة فألتمس من السلطان البت فى إرسالى إلى القلعة فإذا تهاون فلأرحل بحظى الضئيل فانى على يقين أن هذا الصوت الباطن لن يسكت أبداً .

ذهب إلى السراى والساعة مبكرة وحظى بمقابلة السلطان وقال له وهو شارد الفكر :

— إلام تؤجل الذهاب إلى القلعة ؟ لا شىء يكدر

صفوهما هناك . بتريثك تمد لهما فى أسباب النجاح .

فقال السلطان :

— ما عهدنا قط أن صاحب فضل ، وسيد قوم يخضع لإرادة ضيفه الملحة . إنك قد نزلت ضيفاً فى ديارنا ، فأكرمناك ، فلا أقل من أن يكون لك من حسن التصرف ورقة الذوق ما تدرك به صالحنا . كل امرىء يعمل لصالح جنسه والمسيحى لا شك يريد أن يجعل السلطان أسبق إلى محالفة المسيحيين . إعلم أننى سيد الموقف وأنا وحدى الذى سأحدد موعد بعثتك .

وأراد السلطان أن يزداد اطمئناناً من جهة الفتى فأمر بإيداعه فى السجن .

الويل للعاشق المسكين ! مرت به أسابيع وأشهر وهو فى غياهب السجن ، تعرض له مخيلته صوراً محزنة ، وتتمثل له طلعتها التى لو رأته لأنكرته . ولا يزال كذلك حتى ينبثق الفجر فإذا بإيمانه القوى وجراءته الحية يكتسحان هذه الأشباح الليلية . إنها تعيش ! ما أسرع ما كان يرتمى فى أحضان هذه الفكرة كما يرتمى الغريق فى قارب النجاة وقد أحدقت به الكوارث من كل جانب . إذن قد نجت ، مثله ، من الزوبعة ، وسوف يلحق بها ورأسه فوق سطح الماء مرتفع وصدره حديد يقاوم جرجرة

المحيط، وذراعه مفتول يشق به الموج . سوف يدرك الشاطىء ، ويمسك بها بقبضته وهى على أشد ما تكون سعادة ونضارة ، لسرورها بلقائه . ماذا جد فى أمرها ؟ لا شىء يغير من إخلاصها له . كل شىء حيال الحب الحقيقى فى الحياة القاسية ليس إلا زبدا يذهب جفاء . إنه يرفض كل ما كان يدور بخلده . إنها نحلة ، على حد تعبيره ، قد انغمس شطرا منها فى خلية من العسل وتتوقع منه تحريراً وانتشالا .

ومضى الفتى زهاء ستة أشهر منذ قدم إلى دمشق . وفى ذات يوم أرسل السلطان فى طلبه وقال له :

— لدينا أنباء من القلعة . إن هذه الفتاة ترشد المسيحى إرشاداً . وهم يطلبون الآن عُمَّالاً من المسلمين يساعدونهم فى إصلاح أراضيهم فأنا أتوقع أنهم يرسلون إلينا فى طلب محالفتنا . فاذا تم ذلك فستحمل إليهم جوابى . فالتزم السكون حتى يحين الوقت وإنى أحسب أن هذه الأشهر المنعشة قد هدأت قليلا من حماستك فواصل حياتك الهادئة فى منزلك ببردى ويهمنى أن يعرف الرسل الذين سيفدون إلينا أننى أعامل بالحسنى زملاءهم فى الدين .

والشدائد علمت جيوم أن يكون سياسياً . فحيّا السلطان تحية عميقة وهو يخفى فى نفسه ثورة من القلق الذى أثاره هذا الكلام . وانسحب بعد أن أكد ولاءه للجالس على العرش .

أفاء إلى مسكنه ، غير مكترث بشىء ، مصمماً على تقصير أمد بقائه ما استطاع ؛ فكان يقول : « إن الحياة قصيرة جداً ولا أستطيع أن أدخر فى قلبى ناراً وقوة دون ثمرة . فغانية الشرق تتطلع كل يوم إلى طريق دمشق وتلومنى على تغيبى حتى هذا الوقت . »

وبعد خمسة أيام تأهب فى جنح الليل للهروب من دمشق دون أن يرافقه أحد فاعتلى صهوة جواده وطفق يحثه فيعدو فى ظلمة الليل ويمر بالمحطات فى مسالك مفزعة تحد الواحة من جهة الغرب وما زال حتى لحق بقافلة فاستأذنها فى اصطحابه فلم تجد مانعاً من ذلك .

ها هو ذا ، فى طريقه إلى القلعة ، زاخراً بالشجاعة ، مفعما بالثقة أنه سينقذ غانية الشرق ! وكل صباح تبدأ القافلة فى سيرها فى الساعة التى يصطرع فيها النور والظلام ، قبل أن تتنحى النجوم أمام الشمس . ويأخذ جيوم الدهش كيف

لاتشجوه روعة السماء الفاتنة وهو يراها بعيني رأسه بينما يهتك شغاف قلبه نار من النظرة وبرق من البسمة وهو لا يراها إلا في تصوره .

ظل تهاجمه طوال النهار بواعث متلاحقة من الألم والامتنان ثم يتغلب على اليأس بقوة الرغبة . فكانت هواجسه أشبه بسفن ترسم خطوطاً في البحر العميق ، وتلوح شُرعها وتخفى على الأفق البعيد ، ثم تهب نفحة من السماء تكتسحها جميعاً ويظل بحر الآلام كما هو هائجاً بالآمال . كان الفتى يُبحر خلال الكثبان متلهفاً إلى مهاجمة اللغز حتى يهتدى إلى حله ، لهذا كان يلعن كل لحظة من التأخير .

١٠

اقتربت القافلة من القلعة ، وكان من المفهوم لديها أنها ستدخل القلعة دون عناء ، ذلك أن المسيحيين قد رغبوا فى إحياء الرخاء وتجديد الازدهار الذى قضوا عليه فى أول الفتح فكانوا يدعون عمال المسلمين من كل حدب وصوب وكان على علم بذلك سلطان دمشق نفسه . أما جيوم فكان فى مأمن من اكتشاف أمره فى القلعة فسكان القلعة القدماء تشتتوا فى عاصفة الغزو فضلا عن أن الآلام قد شفتـه والسجن قد أحاله حتى أصبح لا يتطرق إلى ذهن أحد أن هذا البائس المسكين هو نديم الأمير المشهور . إلا أن صعوبة واحدة خطيرة تعترضه فى طريقه : كيف يدنو من الفتاة وكيف يختطفها ؟

أمر عجيب ! يا له من بشرى ، فلم يكد يدخل البلدة حتى رأى تغيراً كبيراً قد طرأ عليها : النواقيس تدق وما كان يعهدها

هناك من قبل . كأنها تحب أن تبارك ما ينعقد فى ذهن الفتى من صور وآمال . وهذا شعب جديد من الفرنجة والعرب يتحلى بثياب الأعياد فيسأل جيوم واحداً منهم فيعرف أنه بعد ساعتين سيمر موكب شكر للعذراء على الفوز وسيلحق بالموكب الفرسان مع الأميرات اللائى تنصرن . والآن يحتفل النساء والفرسان فى الحصن .

لم يسأل جيوم أكثر من ذلك ، ومضى فى نزهته . ودخل بساتين الأمير وقد أصبحت الآن مباحة للجمهور بفضل هؤلاء الغزاة الذين زهدوا فى اللذائذ القديمة وإن كان لم يمنعهم هذا من تجديد أكثرها . ومر الفتى على الظلل ورأى المواضع التى منت عليه بصورة من السماء ، ولكن السعادة الغامضة المتقنعة لم تعد تبث فى كل شىء نوراً كما كانت من قبل ، إنها أشبه بخاتم ثمين ضاع منه حجره الكريم . وانبرى إلى الموضع الذى كانت غانية الشرق تملؤه بأغانيها وحيث كان ينفرد بالجلوس معها فكأن حبهما منشور نصب عينيه ؛ تخيل رؤيتها وقد شغلت حيزا ضيقا من الظل ، فوق الأعشاب المغمورة بالشمس ، يوم أن نامت بين الشجيرات فى حنان دافق ، وفى هذا النور الضاحك طرف من فستانها الحريرى الأحمر قد أدركته الشمس فلمع على خضرة

العشب . كانت مطرحة فى استرخاء تحكى اللذة والطهر : حاجبان طويلان ، وأهداب هادئة مسبلة وذراع على جيدها وكف مرصعة بالخواتم ساقطة على خدها وخصل من شعرها فلم تكن هذه البساتين إلا لتزيد الفتاة حسنا ونفاسة ، أشبه بشاطئ حول بحيرة من اللذة الإلهية ، ولكن الآن . . .

ما أشد هذه الدقائق الحزينة التى مر بها جيوم وهو يطوف بساتين القلعة المتهدمة تصطرع فيها نشوة الماضى وقلق الحاضر .

القلعة مكان صغير ، فكان من اليسير أن يجد الشاب وقتا ليطوف فى الأماكن التى يحفظ لها أجمل لحظات فى حياته فاستطاع بذلك أن يحيي شيئاً فشيئاً كل دهشاته وأمانيه ، لذاته وماسيه . تبع الطريق التى كانت تسلكه غانية الشرق مع ايزابلا الوديعة آتيتين من الظلة ، ثم تجاوز الأسوار ووصل إلى مادونها من صخور كان يقف عليها الزعيم المسيحى الذى نظرت إليه نظرتها الغريبة . وقبل مرور ساعتين وجد الفتى نفسه بين المتفرجين أمام السراى حيث كانت غانية الشرق — بلاشك — تتزين بعد انتهاء الوليمة .

انتظر انتظاراً ممضاً ليرى تلك المرأة التى تستطيع بابتسامة واحدة أن تبعث الروح فى هذا البلد الميت ؛ كان يهجس :

لو رأتني من إحدى النوافذ لمدت يديها إليّ ولصنعت من الحيل في المساء ماييسر صعودي إلى غرفتها . ولكن جيوم كان يكن أمراً يضايقه هو ذلك النظام الدقيق والأمن المستتب اللذان يسودان في القلعة ، فذلك يدل على رضاء عام وخضوع تام .

أخيراً تضاعف دق النواقيس معلناً حلول الموكب فخرج الموسيقيون من الحصن فالقساوسة ، فالفرسان ، فالنساء ، وكلهم يسيرون في البساتين على طول النهر . وبين المسلمات اللائي أصبحن زوجات للمسيحيين تتألق غانية الشرق الحسناء بنور ملوكي كنسر صغير ذي جناح مهيض ، يطير بين أسراب أقل منه اقتداراً . تصور كم يكون أثرها في عاشقها حين يراها مزدانة على طريقة نساء فرنسا ! كانت تلبس فستانا حريرياً موضوناً بالذهب رافل الذيل ، وعلى جبينها تاج يتألق ، ومسحة من الخجل جعلها أكثر نقاسة وجمالا . فإلى من تحتاج امرأة هذه محاسنها ؟

نفذت آلام مروعة في قلب جيوم فقد لمح مجداً دونه كل مجد وحفلا كان يتمنى لو شاركها شعورها فيه ، إن ما طرأ عليها لا يد له فيه وحين فاجأها لم يجد فيها ما يسمح بالاعتقاد بأنها لا تزال تذكره . كانت تشيح بوجهها هنا وهناك مدلة بالظهور منتشية بالحسن والشباب كما كانت من قبل . فكيف لم

تعرفه ؟ كان فى لحيته الكثيفة وشعره الأشعث ونظره المحترق ما قد يخفى معالمه ولكن أما كان من الواجب على القلب الوفىّ أن يتنبه بقوة هداه ، ويكشف بوحى إلهامه ؟

واستولت عليه لحظة يأس فجعل الموكب يسبقه ثم انتبه ، فجرى حتى حاذاه وأخذ يرافقه ، وقد غلب اندفاعه على ما فاض به قلبه من ألم مرير . يمشى مشية الناس بين الجموع المتهللة ، قد عرف نساء الموكب ولكنهن تغيرن فأبدلن بسراويلهن ملابس المسيحيات وأخذن منهن شيئاً من التقاليد والأخلاق . وحملن ، كما كن من قبل ، مسابيح من العنبر طوّقن بها معاصمهن إلا أنها تنتهى فى هذه المرة بصلبان ، وأمسكن فى أيديهن كتب الصلوات المزركشة بالذهب واللآلئ . هن الآن أكثر روعة بما أسبغ عليهن الموكب والقساوسة وترتيل الأناشيد الدينية . ومع هذا فما لا شك فيه أن هذه المسحة الدينية لم تنقص شيئاً من فتنهن فى الحياة فى هذه الأشهر الستة .

مر الموكب فى الحدائق المخربة على ضفاف النهر فأشبه فى ذلك ما كان يراه جيوم وهو صغير فى قريته . هذه صورة من قرية فرنسية تنتقل إلى أطلال بستان سورى . ما هذا السحر على ضفاف نهر العاصى ؛ المسلمات يغنين ترانيم العذراء ! وجيوم

يقسم على نفسه ليستعيدنّ سعادته . ويحط الموكب رحاله تحت الأرز ، وللمرة الأولى يتأمل غانية الشرق بين حريمها . فى هذا المكان ، على العشب الذى كان مفروشاً بالبسط ، أقيم المذبح المقدس واستطاع أن يتأملها وهى جاثية فى بريق خمارها ، وإلى جانبها زوجها القائد .

وفى أثناء المباركة التفت القسيس إلى الشعب وهو يمسك بيديه القربان المقدس ؛ ولم يكد يرفعه حتى صلى جيوم لجاحدة الفضل ، ولخطاياه ودعا السماء أن تتقبل أمانيه الغرامية .

ودق ناقوس المساعد مؤذنا بتخليص كل الحاضرين ، فانصرفوا إلا هو ، فقد ظل جاثياً أمام غانية الشرق طالباً من قرارة روحه أن تجود بنظرة . كان يؤلمه أنها لم تتنبه إليه بطريق الإلهام . وأخيراً رمقته الفتاة ولم يلبث حتى أسبلت جفنيها على إنسان عينها الواسع . فظلت لحظات كأنها عمياء ، دون أن يبدو على وجهها السافر شئ . ومدت يدها إلى سيدها أمير أنطاكية على مهل وهى تنحنى له ، وقد لفت نظر القائد الصارم حركة رفيقة منها أثارت دهشته ، كأن الفتاة تدرّع به من خطر فهو يبحث عنه فلا يراه . ماذا ؟ هل كانت قد فقدت صوابها ؟ أم أسرت إليه بنداء أو رجاء ! ورفعها بيديه كالذى

اشترى نعجة فظل يرافقها لا تسمح لنفسها أن تلقى بنظرة عابرة على صديقها القديم .

تصور ما أصاب جيوم من ألم حين شاهدها على هذه الحال . فهى تصحب المسيحى الذى كان قد تركه من أجلها ، والذى تخلصت من حبيبها لتلحق به ؛ جمد الفتى فى مكانه واعترته دهشة وحشية واستغرق فى آلام صارخة : « أنها تختاره أمامى ومن دونى ! » كان يحس أن هذه الفكرة تطعنه فى بصره وسمعه وتنزل بأضرار رعشة قاتلة تتخون جسده كله ؛ وأدرك فى تقزز بغيض أنه كان يفضل ألف مرة أن تموت . وقال فى نفسه : « الآن أصبح لدى من الحنكة والتجربة ما يعادل مائة عام ، وقد قرّ فى يقينى أن الرجل لن يجد حباً أميناً وفياً إلا فى حب أمه فالأم هى المرأة الحقيقية التى توجد بين النساء جميعاً . »

١١

لا تستطيع أرواحنا أن تتنفس إلا فى الحب السعيد ، فهى تنغمر فيه ، وتحمل نفحات جديدة من اللذة والغناء . فإننا إن آثرنا أشخاصاً على أنفسنا وأحببنا أن نتصيد قنصاً طاهراً فكفلنا له السعادة والهناء وابتهلنا إلى الله بالشكر والدعاء ، فما أشد ذلك استرواحاً لنفوسنا ، وانقشاعا لضبابنا ، وكشفاً — أظن — لما بعد الحياة !

هذا التفاؤل فى الحب والكمال الذى يبث فى الروح والجسد الطمأنينة التى تجعلنا محبوبين ممن نحب ، كل ذلك قد حل محله عند جيوم فراغ مروع . كل الطاقة الروحية والجسدية ، المدخرة فى نفسه قد أريقت دفعة واحدة ، كزق قد شق بطعنة من خنجر . ونفدت قوة البأس وأخذ

منه الجهد مبلغه فغلبه النوم فاستلقى على الحشيش .

أخذ الفتى يهذى بالأوهام والأحلام وهو يردد اللعنة على هذه الأرض التى تنكر الجميل . وبدأ الليل وخُيل إليه أن صوتاً يهمس باسمه ورجع إليه حسه شيئاً فشيئاً ونظر فتبين وجهاً ينحنى عليه وأحس بدفء هادئ يصدر من فم جميل يتحدث إليه بصوت خافت وحنان متهافت . عرفها ، فقد كانت ايزابلا . وسرعان ما صب عليها جام غضبه :

— لماذا أنكرتنى هذه المرأة ؟ هل هذا يجوز ؟ أهكذا تستقبلنى ؟

ايزابلا

إنها أرسلتنى إليك .

جيوم

لقد تخلصت منى .

ايزابلا

كانت تخاف .

جيوم

منى ! ما الذى تتصور أن تخشاه من صديقها ؟

ايزابلا

فوجئت بإحجام غير منتظر .

جيوم

غير منتظر ! ألم تكن صداقتنا مدى الحياة ؟

ايزابلا

إن مبادرتى بالحضور إليك دليل على أنك لا تزال عزيزاً لديها وأن إرسالها إياى للبحث عنك برهان على ما بينكما من مودة خالدة .

جيوم

ترسلك طبعاً ! فهى من غير شك لا تريد أن تضحى بدقيقة من الوقت الذى تخصصه للقائد المنتصر . ما الذى نلت منها منذ ستة أشهر ؟ انتظرتها على نهر العاصى وانتظرتها فى دمشق ، ثم

حئت هنا ؛ وكم كنت آمناً مطمئناً حين جئت ! ولكن لم ألبث أن رأيت على وجهها مايعبر عن الخوف منى والحب للقائد . ألا ليت السماء قد حالت دون مجيئى إلى القلعة ، ليت أن هذا الصوت الغادر لم يأسرنى بسحره القادر . إذن كانت تخدعنى يوم أن أخذتنى بين يديها وأسرت إلىّ : « حين أكون على فراش الموت سأناديك او أسرع إلى فراشك ، وأودعك الوداع الحنون . » كل هذا حفزنى على الحضور اليوم ، ولكنى أحس أننى أسبب لها قلقاً ومضايقة فى ملذتها الجديدة .

ايزابلا

لا تكن جائراً ، فلم إذنْ حضرتُ هنا ؟ أما كان أسلم لها ولى أن أبقى فى السراى ؟ فما كان من الحكمة أن أخاطر بالحضور وأن أبادر إليك ، فأسبب لك ولأنفسنا الهوان والأخطار . قدّر هذا العمل بعاطفة فوق الصداقة المجردة ! وإذا عرفت فقدّره بطريقة مؤثرة . . .

جيوم

أعرف أننى كنت منتشياً بإيوائها فى قلبى فما كان منها إلا أن

ربضت فيه لتلدغنى وهى الآمنة ، ثم غادرتنى خلسة وأنا فى أشد الألم ، وأنت أيتها المرأة الشريرة ، فأنت مثلها تتكلمين فى حذر واحتراس فاسكتى ! ولكن لا . . . امضى فى حديثك . ما كان أجدرها أن تحضر لتقصه بنفسها إلا أنها أمة من إماء مولاها .

ايزابلا

أمة من إمائه ! وهل تلومها على ذلك ؟ إنك قد هيأت لها الحياة ، وإنها لاشك عائدة إليها ، وستتبع ، بلا حذر ، رغباتك المندفعة ، إنها استطاعت بحيلتها ، أن تكون حرة وأن ترتفع عن ذل الإماء ، وأن تكسب التاج الذى تركته يسقط . وهذا كله ، كما تعلم ، لاينال إلا بشئ من المجاملة واللباقة .

جيوم

أنا لا أستسيغ التناقض بين استقبالها الذى رأيته وكلامك الذى أسمعه ، فلقد رأيت بعينى رأسى أنهما فى هذه الحياة الجديدة على وفاق تام

ايزابلا

إنها لم تخلق لتسام حياة دون حياة الملوك فهل يهون عليك أن تخفض من قدر التى كنت تحلها المكان الأرفع بين النساء جميعاً؟

جيوم

ما كنت أتوقع الصدمة التى رمتنى بها .

ايزابلا

كنت تستطيع أن تتوقعها .

جيوم

ما كنت أعتقد ذلك . كنت أعتقد أن وجهها — مهما كلفها الأمر — سيُقبل علىّ وسينصرف إلىّ ، وحدى ، بطلاقة لا يرتقى إليها الضعف .

ايزابلا

إذن لكانت معجزة أن نظل فتاة حرة كهذه بين غزاة كهؤلاء .

جيوم

كنت أعتقد أنها ستكون هذه المعجزة .

ايزابلا

إذن لكانت تكون معجزة فذة .

جيوم

حقاً ! معجزة فذة ! ألم تكن فذة فى حسنها ! وجهها من الذهب والفضة وزرقة السماء ، ومن الشباب والحياء ، واللذة والميس . لقد رأيتها منذ لحظة ، فسرت موجة من الحزن المرير فأحالت قلبى ذابلا ذاويا . لقد كانت لى الفردوس الحى . كانت لى أملا فوق الأرض ، وموسيقى كلها سحر ، اقتبست من وجهها الحلو ومن نظراتها كل الآلام البشرية . ليتها تموت ، لئن أتمنى لها الموت أيسر عندى من أن أتنازل عن بقايا سعادتنا . أتمنى لها الموت أو نحيى معاً سعيدين !

كان يضم ايزابلا بين ذراعيه فى أثناء هذا الحديث ، مسل العينين وهى تطبع على وجهه برفق ، قبلات دافئة ، ثم تقول وفيها شئ من الذعر :

— لا تنس أنى ايزابلا ولست غانية الشرق .

— أنا أحبها وأكرهها . لقد بلغ منى اليأس مبلغه . كان لديها وسيلة أخرى لقتلى ، كانت تستطيع أن تقتلنى باللذة وهى تقبلنى بقبلاتها .

كان الفتى يذكر عنها كل ما فيه حنان ورقة ثم يوجه إليها العتاب والسباب كما لو كانت ماثلة أمام عينيه ، وهو بين ذلك يشعر ، على الرغم من نفسه ، بأطياف حلوة تعبر فى خاطره حتى يصبح شعوره الحانق عليها حلماً ولذة وتضطرب روحه ويتباعد وعيده حتى ينتهى إلى آمان ملحة :

— على مروج سعادتى ، وفى هذا البلد الذى ذقت فيه السعادة مرتين ، استقبلنى شخص واحد ! هو أنت يا ايزابلا ، فأشكرك وأحبك .

ايزابلا

إننا جميعاً نحبك حب الصداقة ولكنك معها وحدها ترتبط بحب متبادل ، باق حتى لحظة الموت ولكن هذا لم يمنعك من أن تقسو عليها . كنت تقول إنها ملاك ولكنها الآن فى نظرك شيطان ؛ تضعها فوق قدرها حيناً ودون قدرها حيناً آخر .

وما هى إلا امرأة ، كجميع النساء ، تود أن يكون حبيبها قويًا فاسمع رسالتها إليك ، إنها تشكرك لحضورك وكم تأخرت عنها . إننى لم ألمها حين عجزت عن اللحاق بك إلى دمشق . هل كان يسرك أن ترى عصفور الجنة ينزح عن سماء أوطانه ، ويطأ أزقة المنفى صاغراً حقيراً ؟ أما اليوم فأنا الذى جعلتها تعدل عن الحضور هنا ، فى هذه المروج الخضر ، فان كان لابد من أن يموت أحد فلتكن ايزابلا الشقية ، أما غانيـة الشرق فسوف تأتى إليـك ، وسوف تضمها بيديك ، وهأنذا جئت لأبحث معك عن أسلم سبيل إلى مقابلتها .

جيوم

هل أعتقد اليوم فى صدق كلامكما ! كنت فى وقت مضى لا أشك لحظة واحدة فى صدق كلمتها . ولم يكن يدور بخلدى أنها تستطيع أن تكذب علىّ وما كنت أتمنى إلا طاعتها ، فلو أنها كانت طلبت أن أختار الموت بعد التمتع معها بلذائذ الحياة — لما ترددت أن أفعل وأنا أعلم أنى مع ذلك مدين لها . أما الذى حدث بعد ذلك فشىء غامض . ومن الممكن أن يكون فهمى خطأ . فأنا وحدى أفكر بينما أنتما اثنتان تفكران فى أمرى . فإن كنتما

يوما ما قد تعبتما تفكيرا فليس لدى صديق وفيّ يعينني على تعرف الأشياء بوضوح أما إذا تألمت فهذا لا يكون بغير أسباب .

ايزابلا

اسمع إذن ، الآن لتكن سيد عقلك فأول شيء تفعله ألا تطوف فى المدينة فتسبب هلاكنا جميعاً وسيؤويك احد رجالنا وهو قريب من هنا ، على نهر العاصى ، رجل مسلم يتمنى خدمتنا ونحن سنحاول زيارتك عنده .

جيوم

وهى معك ! احضرا كلتيكما . واسمحى لى بأنك وحدك لست كافية كما أن من الحق أنها وحدها ستسبب لى الاماً كثيرة .

ايزابلا

سنكون معاً ، إنها ستحدثك وستبرهن لك على حبها ؛ ستحضر لرؤيتك وتضع فى أصبعك خاتم اللذة .

جيوم

سيدتى ، أختى ، أحبك ؛ لقد كنت معى خيرة ومعينة ، وأجمل شئ فى ذاكرتى هو هذا الصنيع ، لن أرفض لك مسألة وإنك حضرت اليوم — أيتها الحكيمة — فقويت من عزمى . إن صداقتك لى لهى أحلى من السماء الصافية التى بدت بعد العاصفة حين كنا مبحرين من فرنسا إلى سوريا .

ايزابلا

ليس من اليسير أن تكون آخر كلمة من حب عظيم كهذا أن تتمنى الموت للتى وهبتك ثقتها الغالية .

١٢

ومنذ فجر ذلك اليوم ، توجه السيد جيوم إلى المسلم الفقير الذى أشارت عليه به إيزابلا ، ووضع نفسه فى خدمته عاملا بسيطاً .

كان عليه أن يحرث الأرض ، ويزرع فيها بقولا تروى ماء العاصى وبالرغم من أنه كان لايملك من الحديقة شيئاً فانه كان يحيطها فى عناية بسور من طين ؛ ثم يشترى بشطر مما يكسبه من الأجر قوته اليومى ، وبالشطر الآخر ما يبنى به كوخاً يستقبل فيه حبيبتيه. هذه الحياة بما فيها من إنهاك قوة وضياع جهد كانت أمراً تافهاً فى نظره ، فهى التى سينشد عن طريقها ثمرة آماله البائسة . كان ما أكثر تفكيره ، وهو بين الصخور والشوك ، وتحت الشمس التى لا ترحم ، وفى أثناء العمل الذى يفدحه ويبهظ قواه ، فى اللذات التى وهبتها غانية الشرق ، والتى ستبعثها من جديد

بعد قايل . فهو يرصد الرسول القادم إليه الذى يعلن له زيارة الفتاتين فينبرى حينئذ إلى نهر العاصى يستحم ، ويقطف الزهر ثم ينزلقان إلى الكوخ بما فيهما من وهج الحزن وسحر النشوة .

أقبل المساء وترامت أمامه بقعة خالية يجرى فى وسطها الغدير وإذا بالفتاتين تقبلان وقد بدا عليهما إعياء شديد . وتحمل إيزابلا سلة على طريقة كرائم السيدات اللائى يزرن البائسين . ولم يكد الفتى يلمحهما حتى بادر الفتاة بأن أمسك بمعصميها صائحاً :

— الآن أنت فى قبضة يدى ! متى نرحل ثلاثتنا إلى دمشق ، أو طرابلس أو أى مكان بعيد عن هنا ؟ لا تضيعى وقتنا فى نقاش طويل ، أخبرينى فى عبارة واضحة إذا كنت تريدين الذهاب معى .

— لقد جئت بنفسى إلى جانبك .

— وهل متأهبة لأن تتبعينى ؟

— ما كان ألذ العيش لو أن هؤلاء الغزاة لم يحضروا بعد ! أقسم لك أننى أريد من سريرة نفسى أن أقضى حياتى كلها تحت حمايتك المخلصة .

— آه ياخادعة ، لقد انتظرتك ست ساعات ذات ليلة منكودة على نهر العاصى وستة أشهر أفظع منها فى دمشق ، ورجعت

إليك ، فإذا بك ترتمين تحت سمعى وبصرى فى أحضان سيدك الجديد .

تكلم بهذه القسوة مما أصابه هذه الآونة من حمى ضاربة وألم ممض وتلف باد على وجهه . ولكن غانية الشرق كظمت ماأصابها من قسوة وتقدمت نحو مهاجمها وجهاً لوجه وقلبها وحديثها يشتعلان :

— إننى حضرتُ الآن ، ولست أشكو من هذا الحصى الذى يتلظى ، والموت الذى يهدد حياتى ، والشمس التى تحرق جسدى ، والشوك الذى يمزقنى ؛ إننى من أجل حبك ألقى بنفسى إلى تلك الحصيرة البالية ، فما أجد منك إلا كل لوم وتقريع . فأى جرم قد ارتكبته ؟ لقد خضعت للقوة وحملت بالرغم منى على سرير سيدى الجديد ، هذه جناية خارجة عن إرادتى فهل ينبغى أن أقتل عليها ، أنت الذى تركتنى فى ذل اللحظة التى يقسمون فيها الأسلاب والغنائم ، فكنت غنيمة وضيعة ، وأنت الذى أسلمتنى إلى شهوات مواطنيك المسيحيين الجامحة . انه القدر الذى تصرف بقسوة فى إيزابلا وفىّ . فلا تلمنا على أمر لم تستطع أن ترحمنا منه ولم تقدر أن تدافع عنا دونه .

— ما لك تحوطين نفسك بسياج من الغموض وتهربين من أسئلتى الصريحة ؟ أجيبى ؛ لماذا لم تلحقى بى لا عند نهر العاصى ولا فى دمشق ؟

— وهل كان ذلك فى استطاعتى يا جاحد ؟

أحيطت عيناها بهالة من السواد وتغير فجأة وجهها المتسق :

« وأية نبرات ، وأية لوعة تفيض فتستجيب مع آلامى ! من أى شىء أبدأ بالشكوى ؟ من فقدان الحبيب أم من أهانتى فى بلواى ؟ . . . »

وسرعان ما أهوى بيده على هذا الثغر الجميل ليكفّ صوتاً يريد أن يتعمده بسوء :

— لا يكن مجيئك هنا سبباً فى عذابى ومجالا لاستخدام سحرك ، وليكن شفاء من حبى وانقضاء لأيام غرامى . لاتتحدثى عن شقائك ، فلقد وجدتكما حين رجعت إليكما راضيتين مزدهرتين فى حياتكما الجديدة .

— هل تفضل أن نكون تعستين ؟

— إن كان لا بد من الصراحة فنعم أفضل . كنت آمل أن أجدك بائسة ، وهأنذا أراك تحبينه وتنكرينى حين نظرت إلىّ بوجه لا بِشْر عليه .

— أنت الوحيد الذى أحببتك أيها الرجل الظالم .

— ولكنك واثقة به وحده تناجين حبه وتخطبين وده .

— إنه كان طيب القلب . . . دعينى ياإيزابلا أذكر الحقيقة .

— ولهذا فقد اصطفاك ؟

— ليس فى استطاعة مخلوق أن يصطفينى ، إننى أعرف كيف يتضرعون إلىّ .

— فى المساء الذى تركته فيه كنت أنتظرك وأعتمد على الوعد الذى أعطيتنيه . . .

— لا .

— كانت ليلة لا أنساها . لقد كشفت لى عن حقيقة . . .

— وماذا كنت أستطيع ؟ إنه كان طيب القلب نحوى . ما الذى كنت أستطيع أن أعمل ؟ إنك عجزت عن إنقاذى ، فعلام تلومنى . لماذا تحول عنى نظراتك ؟ لم تنظر إلىّ بهذه الآلام ؟ إنك تريد أن تقتلنى غما . لست أخفى عليك شيئاً . ليتك تتصور كيف كانت البساتين ملأى بالجثث ، والحصن مفعما بروائح الموت ، والنساء قد طارت عقولهن حرصاً على البقاء ، يتشبثن بالغزاة الثائرين ، يرجونهم على قلق ورعب أن ينقذوهن من صدمة الموت وهول الموقف . لست تعرف إلى أى حد كان

كل منا فاقداً لوعيه ، غير متمالك لأعصابه . فإذا بالقائد يرفق بى ويحاول كل شىء فى الوجود فى سبيل إرضائى ، حتى استطاع أن يؤثر فى نفسى . لقد كنت اعتقدت أنك مت ، لهذا كنت أفضل أن أموت .

— تفضلين الموت ! فلماذا إذن لم تهربى معى حتى تنالى حظك من الموت أو السلامة ؟

— لم تحملنى قدماى إلى الفقر والظلام من قبل .

— حملتاك على سريره ؟

— أين كنتَ حينئذ أنت الذى تتكلم بهذه القسوة ؟ على نهر العاصى ! أليس كذلك ؟ فما كان ينبغى لك أن تسهر على نهر العاصى ، ولكن على باب غرفتى المذهبة تحرسها وتذب عنها. وهذا القائد ، هل نسيت ؟ ألست أنت الذى مدحته لى . أتذكر إذ كنا على الأسوار ذات مساء ؟ ألم تخبرنى أن المسيحيين يحترمون النساء أكثر من العرب . هل تنكر أنك أسررت إلىّ يوماً : «أنه ليس من عملى أن أقتل رجال بلادى.» من هذه اللحظة فهمت أنك لم تفكر أن نكون معاً على تمازج تام . ففى الوقت الذى أضحى فيه بسيدى الشرعى من أجلك أراك تؤثر علىّ إخوانك من بنى جنسك . أنت الذى حكمتَ بمعاقبتى بمدحك

إياهم . أنت الذى تركتنى ، ومع هذا فكن على يقين أنك أنت الذى أنشده من دونهم . أقسم لك أنهم إن يكن فى خصالهم ماأعجبنى وحببهم إلىّ فما ذلك إلا لأن هناك تشابهاً بينك وبينهم .

كان الشاب يصيح فى ذعر وقنوط :

— إيزابلا ؛ إيزابلا ؛ أتسمعينها ! كيف يعبر حديثها عن شىء من الحقيقة ماأشبهه بما تثيره فى مخيلتى من حلاوة وعذوبة ذكريات احتفظ بها عن الكنيسة . ثم لم أفسر ما فيها من تحول وفى ذراعيها أسمع نبضات قلبها وأستقبل حرارة جسمها وأشعر أنها تناصبنى الخلاف والخصام . إننى ألعب يا صديقتى مع أفعى وديعة ، ناعمة ، بريئة ، داهية . فإذا برأسها ينبطح ولسانها يندلع . إنها أفعى ، ويجب أن أتمنى لها الموت أو من الخير أن أتمناه لنفسى وتعيش .

لم تنبس غانية الشرق بكلمة فكأنها تشعر باعتداد وكبرياء . وصاحت إيزابلا :

— ألا تستطيعان أن تنالا قسطاً من السعادة ! تذكرا قول الشاعر :

إن الحياة تقاد بفرسين :
فرس النهار الشهباء ،

وفرس الليل السوداء ،
وتركض بفرسيها نحو الفناء .

والآن ياسيد جيوم إن حبيبتك بين يديك ، هنا ، وليست فى مكان آخر . وهى مقبلة عليك بلطف ومودة فلا تجبها بحقد وشر . هل تعتقد أن من المعقول أن تدفع أنت ماتريده حتى الموت ؟

قذفت غانية الشرق بمعطفها على الحصيرة الوضيعة المغطاة بالورد وقالت وهى تجذب إليها حبيبها :

— إذا لم تكن أنت الشخص الذى أحبه فلأكونن أتعس من نعجة جرباء ، حُرمت من فروتها فظلت عرضة للمطر وبرد الشتاء . لأى شىء تعاتبنى ؟ تستطيع اللبؤة أن تحمى نفسها من هجمات الصياد وتستطيع أن تحمى جوانب عرينها من جيوش الفرسان . ولكن كيف تستطيع ذلك إذا ما تسرب النمل فى كهفها فغزا أعضاء جسمها وكساها بمثل أبسطة الصوف ؟ ما الحيلة وقد تركنى صديقى وأخى ، والذى يحمينى ؟ بطبيعة الحال ارتدت أفكارى إلى هنا مهيضة الجناح . فبأية قوة تستطيع أن تحملنى إلى دمشق ؟ لقد حاولت أن تسبح فى السماء وأن تدوم فى السحاب ولكنها انحدرت أخيراً إلى أعماق القلعة .

هذا ما كان ينبت فى قرارة حسى ، فى خلوتى ، ويجرى على شفتى وأنا أتحدث إلى إيزابلا على انفراد ؛ إن أفكارى الصميمة الحقة وكلامى الحر الخالص لا يتعلقان إلا بك ولا يتجهان إلا إليك . لن أستطيع مهما أوتيت من رقة ، وحديث وفيض سرور أن أعبر لك عن حنانى تعبيراً كاملا . أى فراغ تركت لى ! لولا إيزابلا ، نبراس حياتى الهادى ، ما كنت أطيق فراقك لحظة واحدة ! إن القدر يمتحننا وعلينا أن نتغلب عليه . خذنى بين يديك ، أسند خدك على خدى ، دع شعرى الفيضان ينتشر على وجهينا .

— بعد هذه الأيام الخالية ياغانية الشرق ، وجدت بعد لأى صوتك ونظراتك . كل ما ينبعث منك ينفث السحر ويبعث على الألم . كم كان عذابى حين وقع نظرى على هذا القصر وتلك الردهة وهذه المروج وتلك البقاع حيث مضيت تتحملين الحياة بعد أن أزمعت عنها الرحيل . كم كان ألمى حين رأيتك فيها سعيدة ! هل من الجرم أن أسب أيامك الحلوة مادمت غائباً عنها ؟ أليس الجرم هو أن أقبل بالرغم منى ، ما تقدمينه من قربان .

وكان الوجه الجميل والعينان المتقدتان والطلعة المتجهة إليه

تمنعه من الاستمرار فى شكوى أصبحت كاذبة فطفق العاشقان يسومان اللذة التى تضفى على روحيهما هدوءا وامتزاجاً بينما كانت إيزابلا منهمكة فى إعداد الطعام الذى أحضرته فى سلتها لأنها كانت تعلم أن الألم واللذة لا يمنعان العاشقين من شهوة جيدة بعد الخلاص من ألم العذاب ونوبة الانجذاب .

عاد الحبيبان إلى رشدهما وحاول جيوم أن يعود إلى فكرة الرحيل إلى دمشق أو طرابلس حيث يجدان الراحة والسكينة ولكنه لم يفلح ونجحت غانية الشرق فى أن تتفادى كل جواب صريح وتركته وهى تجعله يقسم أنه راض كل الرضا وأنه لا يحب أن يصيبها شىء من الشقاء بتفكيرها فى شقائه .

ونظر إليهما من خلال بوص الكوخ وهما يبتعدان ، فتألم مما أظهرتاه من حذر مبرر منعهما من الالتفات إليه لأداء تحية الوداع . ومضى يفكر فى أن غانية الشرق كانت تبدو سعيدة فلماذا ؟ ألأنها امتحنت قوتها على غاضب ثائر أم لأن الأناقة والرشاقة قد خلقا على هيئتها مظاهر السرور ؟

١٣

وفى الحق كانت غانية الشرق تحس بالشقاء لأن حبيبها يتعذب من أجلها ولكنها فى الوقت نفسه ، كانت تشعر باللذة لأن هذا العذاب الذى يبرهن على مدى حبه لها ، يبعث فى قلبها هدوءا سحرياً يسلمها إلى شعور بالنشوة والاعتداد — كانت على يقين أن الفتى ، فى هذه الفترة ، قد دلهه الحب ، وألح عليه الشاعل ، فأصبح أكثر منها هياماً ، وأشد وجدا ، فلم يتح له ذلك فرصة التفكير فى شىء غير الحب ؛ شاغل يرد من الدم ويهرب من سلطان العقل ، وعذاب ناشىء عن حوار ونزاع يضطرمان فى دخيلة نفسه .

الكلمات التى كانت نطقت بها أو تجنبتها ، والنظرات التى كانت أخفتها أو أظهرتها ، وسكوتها ، كل ذلك كان دلائل وإشارات لا ينفك يستحضرها فى ذهنه ، ويحللها مستغرقاً فى

ألم مرير . فهو أشبه بأطلال فى أحد السهول ، أو قطع من نقوش خزفية ، أو قل طائفة من الجراحات . العبارة التى نطقت بها إيزابلا : « يجب أن يقال له كل شىء » مهدت لبقاء أمور غامضة فى نفسه ، فكان يسيطر ضوء ساطع على رأس الفتاة ، وشك قاتم فى قلبه . كان يبدو له إن سماء سوريا القاسية وإرادة فانية الشرق العنيدة يتظاهران على إفنائه ، وهكذا لم يبق فى نفسه إلا الحب وحده يخزه ويقض مضجعه .

وفى المساء ينأى عن الغدير نحو مائة من الأمتار ، ويبدو القمر الذى يخلع على بساتين الحريم زرقة وبهجة وتصعد من قلبه مناجاة طويلة للعصفور الجميل الذى تحول عن البساتين التى كانت قفصاً يأوى إليه العصفور وحبيبه . فى مثل هذه الليلة سمع الفتاة لأول مرة تزدهر روحها فى إيقاع حنون ونغم فتان ، ومنذ هذه اللحظة وقع فى القيد فجأة وتوقف عن سبيله الحر فى الحياة . تكلمى أو اسكتى يا ساحرة ، فلا يزال غناؤك يطبع آثاراً عنيفة على أعماق قلبى المسمم . كم أبهجت تلك الحفلات الغزاة ، وأطربت نفوسهم ، والفضاء زاخر بالنجوم ورؤوس اشجار القلعة تتأرجح فى السماء العميقة وأضواء المشاعل تلمُّ شتات الألحان والعازفين بينما تغمر جيوم بموجات من الأسى ،

وهو يتمطى فى ظلمات كوخه . على أن هـذه السماء والأنوار والألحان كانت تجعله أقل تأثراً من ذكريات تركزت فى قلبـه ، وانحصرت فى فؤاده ، قضى بسببها ليالىَ منْ لسعته الأفعى ، يفكر فى المرأة وهى ترفع يديها « أرى فوق مرفقها سواراً فضياً ولـكنى أحس بأنها تخفى ثعباناً فى كمها الواسع » . وهكذا يظل فريسة هذه الصور المعادية حتى تأخذه سنة قاتمة من النوم . وفى نيته أن يعرض عليها هذه الصور فى أقرب زيارة لها ، وما كان أكثر شكه فى زياراتها .

فإذا جادت بزورة وغادرته ، فلا تلبث فترة السـمر والبهجة أن تتلاشى كما تفنى النغمة ؛ فيذهب عنه سلطانها الجميـل ويرى أن مخلوقاً من الحقد يحيى فى نفسه ، فـكان يستقبل هذا المخلوق الجديد بسرور عنيف فيغذيه ويتعهده فهو بعد أن تنصل نشوته الطارئة وينطفىء حنانه المؤقت يرجع على أشد ما يكون طلباً للقوة واستنشاقاً للسيطرة فيتساءل كيف يظل فى هذا المنفى ، وكيف أن الطيف الذى هزمه الحب لم يعـد يطوف على شاطىء السعادة ؟

وهكذا يظل على هذه الصورة من القلق فلم يكن يجد هدوءه إلا فى اللحظة التى كان يمسـك فيها بحبيبته كالغريق إذ يتشبث

بقرص النجاة فيخضع نفسه لصوتها البليغ . هذه الكلمة ، وهذه الوعود ، وهذا السخط ، وهذه القوة الحيوية كانت تقنع الفتى بقدر ما يستمر أثر الزيارة فى نفسه ثم تذهب غانية الشرق ، وينتظر الفتى من جديد أسابيع كاملة .

هذه الأسابيع الفاصلة بين الزورة والزورة كانت ميتة ، يود أن يستغلها لتمهيد السبيل إلى الكوخ ، ولكن ما ثمرة هذه الحماسة الفاترة إزاء سيل الدقائق البارد ؟ كل هواجسه ورغباته تغزوه وتلح عليه وهو مشلول الحركة مهيض الجناح ؛ كان يطلب غانية الشرق بكل أفكاره الجلية وشهوته الخفية . كان يرى نفسه كسرب من العصافير يهم بالطيران فيمنع بقسوة فى شرك . فإذا مضت فترة من الزمن وبدت له فجأة ، ورآها رى العين ، وتيقن أنها هى ، ترافقها إيزابلا ، استحال ظمؤه ولذته ونشاطه ألماً على ألم .

— كل شىء يصبح واضحاً سهلا عندما تكونين بجوارى . فحين يجتمع شملنا ويلتئم حبنا يتصاعد منه ذرات من الضباب تغشى اشجانى ولكن كم يشف هذا الضباب عما تحته من شجن جاف مرعب بعد أن ترحلى عنى ! فهبينى إذن حياة جديدة يا رسول الكواكب فإن روحى مريضة بسوء ظنها ، مريضة بوجه خاص ،

بذكرى سجاياك الماضية ؛ اجعلينى أنسى ما أعجز الآن عن الحصول عليه ، لست أنكر أن عذابى يهدأ حين تكونين حاضرة فشعرك النورانى ، وعيناك الوهاجتان ، وصوتك الحنون ، كل ذلك يعود فيمنعنى من الهروب من سلطانك المستبد ، ومن الإمعان فى التفكير الطليق فى خطاياك . آه ! ما أكثر مضايقتك لى ! حين تهب النسمة فتحدث تجاعيد على السطح الهادىء وتعبر على أسارير وجهى وعينىّ ، وحين تنأى روحى عنك هاربة ، فما أسرع أن تدركى ذلك وتفطنى إليه ؛ إنك تقرئين دخيلة نفسى وتتنبئين بما أفكر فيه ، وتمنعيننى من قوله . إنك تقودين حبى كما يقود المرء حيواناً أليفاً بزمامه ، وتحملينى بالرغم منى على الطريق الذى أود أن أتخلص منه . وفى أثناء ساعتين تجعلين منى شخصاً سعيداً طائشاً ناسياً ، فإذا ما رحلت استعدت تشردى فى الألم ، فكأن كل شكواى وآلامى حية كما كانت ، تتنبه بمجرد بعدى عن نار نظرك وموسيقى صوتك . والحق أننى ألعب نفسى باحثاً فى هذه الحياة التى نفيت منها ، عن سبيل أو عاطفة تفسر لى كيف تبعدينى طالما تحرصين علىّ . أتقولين « لا » آه ! كل قلبى يعرف أنك زاخرة بالرعاية متمتعة بالعناية ، أما أنا فلست أذوق من ذلك شيئاً بينما تحميانك

وتدفعان عنك الإلحاح الذى أموت من أجله . المماراة ليست متكافئة بيننا . فاى شيء ثابت ، أبدىّ أستطيع أن أتمناه ؟ ومع هذا فأنا قانع ، لا أريد شيئاً آخر ؛ كان يجب أن تلحق بى على طريق دمشق .

— أترك مسألة البحث مما كان يجب عمله زمن العاصفة . والآن قد صفت السماء مرة أخرى .

— الصفاء موجود فوق دمشق ، فوق طرابلس ، فوق أوربا ، فوق الصحراء ، فوق آسيا كلها ، ولكنه ليس هنا . سأظفر بالسعادة وسأظفر بالكون ، بين ذراعيك ، حيث كنا . ولكنك تفضلين آلامنا وتقييدك على الحرية التى نكون بها طليقين أحدنا للآخر .

سكتت غانية الشرق وتكلمت إيزابلا

— رغباتك الضخام لا تمنع ما تريدان الاجتماع من أجله ، وإنى لأرى أن من الحكمة حرمان نفسيكما اليوم مما تحاولان البحث عنه بطريقة تجعله لكما مدى الحياة .

ولكن سرعان ما استأنف جيوم قائلا :

— أريد أن أكون حيًّا ، أن أدخل فى الحياة من جديد . لا أستطيع أن أطيق أن تقعا فى أيدى أصدقائى وإخوانى دون

منازعتهم ؛ لم تريدين أن أرحل عن هذا المكان ، وأن ألحق بك ؟

— لا تتعجل فسيكون هذا قريباً .

وظل هذا الحال يتكرر حتى كانت إيزابلا تقترب منهما وتقول :

— أزفت الساعة ويجب أن ننصرف ، وسنعود عما قريب وفى المرة القادمة ستتفقان .

١٤

توارد على نفس جيوم انقباض ممل ثم مفاجآت من الآلام والسرور : يحس بآلام حين يرى فراغا مبهماً لايستطيع تفسيره فى أخبار غانية الشرق الواضحة ، ويحس بسرور أعمق من الموت حين كانت تنحدر غانية الشرق إليه حتى تصل إلى مختبئه ، لم ترفض له شيئاً مطلقاً ؛ كانت تعامله دائماً معاملة سامية . ولكنها تعيش فى مكان آخر ، وهذا ما كان يجعله يرتجف ألماً وغماً .

إن الرجل الجريح لا ينام ولا يترك أحداً ينام. وفى خاتمة هذه الأيام صمم على أن يقول لها وقد شفه الجوى :

— إنك لا تريدين فراق القلعة ، وأنا لا أستطيع أن أبقى فى هذه الوهدة ؛ إنك تماطلينى من أسبوع لآخر ، وأنا ألح عليك أن تقرري مصيرنا . أنا لاأقبل هذا السكون ، كان شرابنا سائغاً نقياً فكيف أتعود إلى الأبد حباً مشوباً بالقلق ممزوجا

بعدم الاستقرار ؟ ما قيمة اللذة بدون إخلاص ؟ إن لذة ليس وراءها سعادة لهى لذة اليأس . يا لمعة اللؤلؤ والشباب ويا سطوع إقبالك ، أخشى أن أسبّ كرمك السخى وأظهر بمظهر الجاحد لأسعد لحظات القدر . لتكن تلك اللحظات مباركة ! مع أن تلك اللحظات تتقاذفنى الآن وأنا متحطم فى أشد الآلام سوادا . فى أعمق غور من روحك سمعت الشئ الكثير مما يقال فى سكون هذا الغور وعرفت أن روحك ترفض إنكار الشخص الذى تكتفين أن تجعلينى أحرز قصب السبق عليه مع حرصك بغرور عنيف على حبه الذى يجرح كرامتى .

— ولماذا تغار من هذا المسيحى ، وما كنت تشعر بهذا نحو سيدى المسلم ؟

— لم أكن غيوراً منه .

— ولكنى ملكت قلبه عدة سنين .

— إنك لم تختاريه وأناحىّ فإنه كان سابقاً لأول نظرة لنا ، وبعبارة أخرى لوجودنا على الأرض ، إنه لم يكن سُبّة لشعورنا فلم يحرمنى من أملى ، أما الآن فأنا غيور من أحلامك مع هذا السيد الجديد . والمرء فى سبيل تحمل الآمال التى تفيض حول الحب ، والتجلى الذى تحبوه لنا الحياة ، والذى ينشأ من شئ

نحبه ، يجب أن نضع قوة العاشق ونشوته فى وجهة واحدة تبدو لنا خالدة ثم نصهرهما ونوجههما متحدين فى بناء يهمنا أكثر من حياتنا المحدودة ؛ ولكى نأمن أن أمواج الهوى الحزينة لا تبتلعنا فمن الواجب ألا يعتريها الركود وأن تكون نهراً كبيراً يحمل آمالنا إلى شواطىء جديدة دائماً لا إلى مستنقع لا تلبث أجمل زهرات اليوم المنسلخ أن تفسد مياهه . ولكنك مع شخص آخر تتمتعين بهذا الحب المثمر فما هو نصيبى إذن ؟

— نصيبك أنى ألاطفك أيها الجاحد .

— وأنت من خلال ملاطفتى تؤسسين معه هدفاً مشتركا . إنكما تؤسسان شيئاً مجتمعين ، أما أنا فما نصيبى إلا مجرد السرور ، سيكون من نصيبى اللحظات التى لا تكون خالدة . لهذا أرفض ؛ حسبك هذا الظلام ! أنت التى أحبك ؛ فلا تضطرينى إلى كراهيتك . إما أن نرحل وإما أن أذهب إلى رفقائى الفرسان أطلب بجراءة حبك كاملا غير منقوص .

انتظر منها موافقة ، ولكنها ظلت صامتة لا تتكلم ، وكأنها ترفض .

حينئذ ، بعد دقيقتين من الصمت ، أقسم بصوت مهيب :

— حتى ولو أدى الأمر أن تموتى موتاً فظيعاً أنت التى

أفضلها ألف مرة على نفسى ؛ سأذهب إلى القلعة مكشوف الوجه خجلا من أنى خضعت لك دون نضال ردحاً من الزمن سأخاطر بكل جراءة حتى ولوقدر لنا أن نموت معاً . ليحمنا القديسون ! لقد انقضى التأجيل سينفذ القدر المحتوم .

قالت ايزابلا :

— يا إلهى !

قالت العربية :

— إنه سيهدم كل ما بنيناه .

— لا أريد بناء مصنوعاً بالأباطيل .

— أيها المجنون ، أما إذ لابد من الموت فلنمت معاً ؛ إننى معك أريد الموت أو الحياة على ألا ينحط قدرى وتتضع مكانتى ، لست أخفى عنك شيئاً مما أفكر فيه . ستعرفه إذا لم تعمك الحقيقة فى شمسها الوهاجة ، إننى أمتلك هنا الملك ، السلطة الإلهية التى تعلو على كل سلطان . لا أريد أن أتنازل عن هذه النعمة . ومن الحق أيضاً أننى لا أستطيع أن أعيش بدونك . وأنت تريد الرحيل ولحاق بك ! ولكن قدمىّ كما قلت لك لاتحملاننى إلى أى مكان آخر . فابق هنا وسنعمل معاً على المخاطرة ! وإن مجازفة الملكة خير عندى من مجازفة امرأة شريدة طريدة . وأنا

فى سماء القلعة كوكب ثابت ، كبير ، وهاج ، ولا أريد أن أكون شعلة طوافة أو كوكباً متشرداً أو حجراً ساقطاً . إنك تلح فى الطلب وتريد أن نكون كالبقايا التى يجرفها السيل ! لامانع ! وسأكون فى أثناء الخطر جريئة بجانبك . تعال معنا وأخبر القوم كيف هربت إلى دمشق وأنك تريد أن تعيش مع المسيحيين إخوانك . ولن ينطق المسلمات بشىء من أسرارنا ، ونرجو أن تعينك الظروف فتنقذنى مما أنا فيه . واعلم أخيراً ، أننى لا أستطيع أن أضحى بك ولا أن أتنازل عن بساتين العاصى حيث ولدت لأملك ناصية الحكم .

— سنجازف بحظوظنا كلها لكى نظفر بحياة سماوية ، وحسبى أن أخرج من هذه الوحدة البغيضة .

قالت ايزابلا الحكيمة مع تنبؤ حزين :

— فلنحاول إذن هذا الجنون . وقد قيل :

يظل الحكيم على شاطىء البحر ،
يبحث عن دمن ضحلة الماء .
أما المجنون فيمخر عباب البحر ،
بقدميه العاريتين .

ولم تتردد غانية الشرق فى تنفيذ حيلتها بحزم فأشارت بأن ينصرف جيوم عن سيده وأن تذهب إلى رجل آخر مسلم ، ويوهمه أنه حضر مباشرة من دمشق . ولم تزره الفتاة عند هذا الرجل بل أرسلت إليه مطران أنطاكية وهو رجل تقى كان يعتمد عليها فى أمور شتى ، حتى يمهد السبيل لجيوم عند أمير أنطاكية . وأفضت إليه بثقتها مع اعتراف لبق . قال السيد جيوم لهذا الرسول المبجل :

— كنت مريضاً بقوة من السحر، وحضرت إلى القلعة بأمر من حاكم طرابلس سياسياً وضامناً للسلم، وإننى لم أحارب مطلقاً رفقائى فى الدين ولا وشيت بسيدى ، والآن أريد العودة إلى زملائى وأبناء عشيرتى وأضع فى خدمتهم معرفتى للغة العربية .

فرأى الرجل التقى فائدة هذا الفارس الفتى فصمم على خدمته فأصبح السيد جيوم أكثر ابتهاجاً فهو الذى كان — منذ أيام — يزحف فى حفر مظلمة ، تنهار عليه الرمال من جوانبها فتردمها عليه والآن يلمح بصيصاً من النور فما أسرع أن يندفع إليه بغريزته مهما وجد فى هذا الهواء الطلق من خطر أفظع ! مرحباً بالموت إن كان مصيرنا إليه ! مرحباً بضجعة الموت المباركة !

١٥

لا ندرى بالضبط ما الذى عرفه المطران فى مغامرات السيد جيوم وغانية الشرق ، ولكن الذى حدث أنه عرض أن يضع سلطته الضخمة فى خدمة العاشقين . كان الحبر المبجل يتمنى أن يؤسس مسيحية سوريا بكل ما كان يندفع إلى السماء ويمد الشباب بالقوة والنار . شتان ما بين الفوضى الراهنة التى خلقها الفوز فى المعارك وبين المملكة التى يحلم المطران أن يصلحها على أساس عظمة المسيح . إنه يحب هؤلاء السيدات العرب اللائى تنصرن وولدن جيلا جديداً . وهو يحب هذا الفارس الذى وجده ذا خبرة واسعة ، ويأمل بهذه المواد الثمينة أن يقيم جسراً فوق تلك الغقبات .

وفى ذات يوم عقب خروجهم من الصلاة ، أمام المسجد

القديم ، الذى أصبح كنيسة ، تقدم إلى أمير أنطاكية وهو يمسك بيد السيد جيوم ويقول :

— سيدى ، لقد سمعت بطريق الصدفة اعتراف هذا الفارس الذى حسبته أول الأمر مسلما ، إذ يرتدى ملابس متواضعة . وقد قص علىّ حكاية عجيبة سأعيدها إذا سمحت على مسامعكم . إنه فارس مسحور لا يستطيع هو نفسه أن يفسر سر هذا السحر الذى اعتراه حين كان فى بساتين العاصى فى زمن مضى ، وقد جاء إلى القلعة رسولا من سيده حاكم طرابلس . وظل هذا الفتى يذبل كلما بعد عن هذه البساتين . وبينما كنت تحاصر المدينة كان عذابه الأكبر أن ترك المدينة كيلا يريق دم مسيحى ، وهام على وجهه كالتائه الشريد لا يلوى على شئ . وها هو ذا يعود إلى المكان الذى بهره سحره طالباً من الإله الحق أن يعينه ؛ فإن هذا مرض لروحه يجب أن نساعده على الشفاء منه . وإنى وإياه نطلب منك أن تقبله من ندمائك لكى يجد راحة وسيكون فى الوقت نفسه خادما وفيا .

سمع الأمير هذا الرجاء فابتعد بضع خطوات كما يفعل الملك الحازم ، ونادى الأمراء ذوى الحزم الذين كانوا يخرجون عقب الصلاة وأسرّ إليهم حديثاً قصيرا ، ثم عاد إلى السيد جيوم .

وقال له جهارا :

— يا سيدى جيوم إننا إذ كنا نجل هذا الحبر الذى يرافقك ، ونقدره ، وإذ كنا نقدر لك خدماتك التى قصرتها علينا كمعرفتك باللغة العربية فإننا موافقون على رجائك ونرجو من الله أن يخفف لك من آلامك ونطلب إليك أن تحضر من الليلة للعشاء معنا . وإن سيداتنا ولا سيما اللائى يعرفن اللغة العربية ليسرهن انضمامك إلينا .

شكر المطران وجيوم الأمير لإجابته اللطيفة وسلم جيوم بيده على جميع الفرسان الذين كان من بينهم من يعرف أصدقاءه وأهله . ثم قاده المطران إلى المنزل الذى كان قد أعده له باتفاق مع الفتاة حيث كانت تنتظره الملابس التى تتفق مع مكانه الذى رد إليه .

١٦

وحان وقت العشاء فتوجه السيد جيوم إلى الحصن وأدخل غرفة النافورة التى يحمل لها ذكرى قديمة حين كان يحضر فيها نساء السراى ليسمعنه وهو يأكل مع الأمير ويقص له بحماسة ساذجة غرام تريستان وإيزولت . ما كان أجمل هذا اليوم وأمتعه ، وما أشدها ذكرى لزمن جعل قلبه ذابلا ذاوياً ! فلما حيا الأمير ذهب لينحنى أمام غانية الشرق ونساء العرب وقد رددن التحية بانحناء مصطنع وهن يكظمن الانفعال الذى سببته عودته إليهن فلم يبد عليهن أنهن يعرفنه فقد أطعن كلام مولاتهن. ولا غرو فهى التى حققت لهن النجاة من المحن بذكائها. اجتمعن حولها وتهافتن عليها كأسراب من الحجلان أذعرها الصيادون .

وتصدر الأمير المائدة وغانية الشرق بجانبه والمطران على يمينها . وكانت المائدة منسقة على الطريقة الافرنجية ؛ فالنساء

مختلطات بالضيوف لسن نائمات على الوسائد بل جالسات حول المائدة . وجلس السيد جيوم فى طرف ناء يتألم إذ أحس بعودته إلى الحياة وله كل شىء فى يده كما كان من قبل .

تحدث أمير أنطاكية والمطران والفرسان فى هدوء وعنف عن مشروعهم المزمع تأسيسه وهو تكوين مدينة نصفها سورى ونصفها أفرنجى . وكانت غانية الشرق تفهم وتتملق هذه المطامع بمهارة عجيبة ؛ كانت تتجلى عبقريتها فى أبهتها ورشاقتها الطلقة التى تسطع على جميع الأشياء . ومع ذلك كانت تبدو بسيطة طيبة نحو كل فارس من هؤلاء الفرسان الذين كانت تعاملهم أصدقاء قدماء ، كانت تتحدث إليهم ضاحكة حتى مع أقلهم قدراً فيترك حديثها أثراً طيباً فى نفوسهم . ولا غرو إذا شوهدت نظراتهم تتعلق بإعجاب على وجهها الكريم البشوش . وما أشد اعتقاد كل واحد منهم أنها ملك نزل من السماء ، اجتمعت فيه كل هذه الخصال الطيبة ، فضلا عن جمال فذ نادر .

حتى ذيوع صيتها كان مصدر ألم للسيد جيوم ! فلم يكن فى وسعه أن يلوم هذه الأعجوبة الفذة ، فهو لم ينجح فى أن يحقق لها الأمان والسلطان ، أو بعبارة أبسط لم يستطع أن يكبح جماح الفرس ، وهى تعدو عدواً سريعاً وأنفاسها تتصاعد دخاناً ، فى

حقل مترامى الأطراف . هل هذا الذى يجلس فى أقصى المائدة يستطيع أن يدعى أنه يحب الملكة حباً صحيحاً معترفاً به ؟ أحسب الفتى مكافأة له أنها ترحب به فى سريرة قلبها ؟ هكذا كان يفكر، ولكنه لم يستطع أن يحتمل منظر هذه الأعمال التى تشارك فيها سيدها الجديد والتى تثمر من ثمار الزهر والفاكهة ما كان يريد أن يقطفها معها .

وبعد العشاء رفعت المائدة وبدأ الموسيقيون يعزفون عزفة الرقص ، فرقصت غانيـة الشرق مع كثير من الفرسان وهى لاتكترث لجيوم لأنها كانت تريد أن تبعد كل شك ما استطاعت، ثم تخلل الرقصات بعض الأغانى والأقاصيص الغرامية والهزلية فلم يسبقها أحد فى هذا المضمار . غنت كل القصائد التى كان يحبها جيوم فأثارت فى نفسه ، فى هـذه اللحظة القصيرة ، ذكريات لاحد لها ، وكدست فى قلبه حياة من الآلام . هل كانت تتعمد بذلك إثارته أم كانت تريد إعجاب المستمعين ؟ عد الفتى هـذا العمل نفاقاً وخيانة . فقديماً كانت العبارات فى نظره تتطاير فى رقة وعذوبة من شجرة إلى شجرة فى البستان ، فأصبحت كلماتها اللطيفة لطف الهواء ، الأليفة إلف الحمام أسراباً من الغربان تحوم على سعادتهما . كانت تلحّن ، بدون كلام ما ، تزفر به

من الآلام ، فامست بذلك نغمات فى كل مرة أثلجت قلوباً متألمة . كان جيوم يرى معشوقته قطعة رائعة من المرونة الحية ولكنه كان يحس أنه أكثر وحدة ووحشة من أيام دمشق ولياليه فى الكوخ على نهر العاصى .

وبعد أن شارك المستمعين فى مدح الفتاة قال لأمير أنطاكية :

— إنى أذكر بعض الألحان الشهيرة التى أعجبتنى فى رحلاتى ، ويا حبذا لو غنتها لنا هذه السيدة كما فعل المغنون الذين سمعتهم فى دمشق ، فهل تأذن لى أن أطلب إليها ؟

فقبل الأمير وقال السيد جيوم للفتاة بلغتها :

— هل تعرفين الأغنية التى تبدأ بهذه الكلمات : « قدرة عشيقتى على الكتمان تفزعنى » ؟

فشخصت إلى أميرها وانتظرت أن يسمح لها بإشارة لإطاعة رجاء الضيف .

فظلت فترة أكثر من المعتاد ، فى حالة إطراق تكرر فى نفسها القصيدة لكى تتحقق من الكلمات والإيقاع ثم رفعت أجفانها ، قبل أن تبدأ ، تنظر إلى السيد جيوم ، فشع منها نور هادىء قوى حتى إنه استطاع أن يلمح من سيماء هذا الوجه المضىء بشعاع روحى تعبير الدهشة المؤلمة الحنون .

فغنت .

هتف المحب الجاحد :
إن قدرة عشيقتى على الكتمان تفزعنى .
إلا أن العشيقة التى يطعنها ، تجيبه بحكمة :
إن يكن هذا كتماناً فاحمد الله الذى جعلنى قادرةً عليه ،
فإن أميرى قد مات وأنت واقع فى الذل ،
وأنا لا أستطيع أن أستر وجهى بحجاب .
كيف تلومنى على الاحتفاظ بالهواجس التى يزخر بها قلبى ؟
هل تريد أن يسمعها الناس وهى تموج ؟
هذه الهواجس التى تذكرك وتحكم علينا .
وهذا الغريب الذى من سوء الحظ
يضع رأسه على قلبى الأسير فى كل مساء .

أقلقت الشاب هـذه اللمحة الأخيرة فقال وهو يكظم ما فى نفسه : لا يوجد فى العالم بأسره من يحكى هذه المغنية فى طريقة غنائها الراقى. ثم قال لها بالعربية وهو يتجه إليها وحدها إنه أصبح الآن لا يستطيع أن يسمع إلا أنشودة الموت .

فاجابته :

يود العشاق أن يموتوا معاً ؛
كل عاشقين يطويهما قبران متشابهان .
تغطيهما صخرة ضخمة ،
ولكن هل تحت هذه الصخرة
يرى العاشق بسمة الحبيبة
ويلمح وجهها الجميل ؟
إننى على قيد الحياة
وإن احتفاظى بشعورك
الذى هو لذتى وفخارى
لمما يشجع النفس
ما الحيلة فى قبر هذا الغرور
الذى أنا مدينة لك به
وفى جمالى الذى هو عزيز لديك
وفى التضحية القاتلة
التى أراك تقبلها ،
وأنا الضعيفة ؟

فإذا أمرنى عشيقى بأن أموت
فما عليه إلا أن يفصل قلبه عن قلبى
فانى قبل حبه لم أكن إلا ميتة .

وعند انتهائها من الغناء نظرت إلى السيد جيوم نظرة نقلت سرها من روحها إلى روحه : إنها تصمم على الحياة وتقبل أشراطها . وكانت المودة التى تسكنها له تبقى ثابتة تحت الموجة المتحركة إلا أنها كانت تحتمل كل البحر الزاخر . أما هو فقد كان يفكر بوجهه الظامئ ، وقلبه الذاهل ، ونفسه المتحطمة بهذا الجمال الساحق الذى أدى به إلى إنكار تشكل الشيطان فى صور عديدة — كان يفكر : « لعل هذه ليست هى التى أحبها وإنما هى امرأة أخرى أسمى منها ، وإن وجود هذه ليقرب إلينا صورة تلك ويعطينا فكرة عنها ، فتلك الأخرى هى التى أريد أن أبحث عنها وراء الموت . »

وبينما هو يلوك الألم ويتجرعه إذا به يتظاهر بسلوك الشخص المنبسط الذى لا يبالى . ولكن إيزابلا — بفطنتها — أدركت تصنعه ، ورأت أن شفتيه ترتجفان غيظا ولمحت أن الفتاة العربية ، فى هالتها الساطعة بالنور والموسيقا فى حالة شقاء .

فاقتربت من الأمير وقالت له :

— سيدى هل ترى أن سيدتى غانية الشرق قد رقصت وغنت ما فيه الكفاية ؟ وإنى أعلم أنها متعبة فى هذا المساء جدا لو تطلب إليها أن تجلس معنا ، وتنادى هذا الفارس الضيف الذى يجيد لغتنا لكى يساعدنا على معرفة لغة المسيحيين الجميلة .

فأسرع الأمير وطلب إلى العربية أن تستريح ثم أمر ثلاث سيدات أخر ، مهن إيزابلا ، أن يجلسن جميعاً .

ووجد السيد جيوم نفسه قريباً من العربية فاتخذ من نفسه وجهاً هادئاً مبتسما بالرغم مما يعانيه فى دخيلة نفسه (وكم علمه الألم أن يستعين بالدهاء فجعله يختلف عن ذلك الفتى الفارس الساذج الذى كان من قبل) وقد عرف الفتى كيف يُفهمها بصوت طبيعى لا خلجة فيه :

— أنت أيضاً جندى محارب إلا أنك فُدتَ المعركة خيراً من المدافعين عن القلعة. خرجت من الهزيمة منتصرة وها أنت تأمرين الجميع فى هذا المكان .

فقالت له :

— للنساء والرجال وسائل مختلفة من القتال ، هؤلاء يسلكون بالقوة وأولاء يتوصلن بالدهاء . ولم يكن لدينا نحن

إلا حيلة واحدة. ومن الشرف لنا أن نختار لأنفسنا علية القوم، والا ننحط بانحطاط من نريد أن نعيش على أيديهم، ولا شك أننى كنت الآن فى غمار الموتى لو أننى انتسبت إلى جندى حتى ولو استطعت أن أجعل منه حاكما تابعاً على مقاليد السلطان. لهذا فقد وجب أن أختار الأعلى مكانا.

فقال لها بنبرة حزينة « أختار ! » وفهمت غلطتها وتضايقت منها.

— لماذا تنظر إلىّ نظرة الغضوب. لم تعلق ذهنك بأمور ثانوية وأنت تملك أفضل نصيب من الحب؟ لم تلومنى على من أخضع له بينما أناجيك فى خلوتى؟...

وقد كان يفزع إيزابلا هذا النقاش فكانت تحاول أن تتدخل. قالت لها العربية:

— إنه لم يصدقنى، إنه سيكرهنى بسبب هاجس من صنعه واختراعه... إسمع؛ أنت السبب الذى عرفت به اللذة، وهل تلومنى على استخدام عقلى؟ هل تأمرنى بإلغاء عقلى؟ ماذا أصنع؟

قال لها يائساً:

— أن تكشفى لى قلبك بصراحة تامة.

فى هذه اللحظة اقترب الأمير:

— سيدى جيوم إنك معجب بالسيدة غانية الشرق وقليل من يعرف أننا بفضلها مدينون ؛ فهى التى أرشدتنا إلى ما فى الحصن وضمنت خزائنه لنا .

يالها من بداية تنذر بالويل والثبور ! كانت هذه الكلمات كافية لأن تقتل إلى الأبد ما كان يطويه جيوم فى نفسه من الثقة لا مناص إذن من حدوث الكارثة . من الذى لا يحس بالدهشة حين يسمع خبراً مصوغا فى أسخف عبارة تؤثر فى النفس وتغير القلب ؟ ومع هذا فهو لا يجرؤ على إحداث إشارة أو حركة تدل على ما استولى عليه من الهم والقنوط . سمع الجميع هذه الكلمة فهالهم الأمر كأنهم فى حلم ؛ كلمة تسربت فى أعماق نفسه فغيرت طبيعتها وقلبت كيانه فعل زجاجة من السم الزعاف قد صبت فى نافورة من الماء .

— وفى ذات يوم ، بعد انتهاء الحصار ، بينما كان المدافعون يشعرون بظمأ شديد ، وصلتنى بطاقة باللغة العربية تقول : « لم يبق إلا ساعات حتى يكون الحصن فى قبضتك . فاذا دخلت الحصن فأسرع إلى غرفة الكنوز من السراى فى البرج الرئيسى ودق بابها الحديدى اثنتى عشرة دقة ، على دفعتين ، وستجد فى داخله امرأة هى التى كانت قد حيتك ذات مساء ونادت وهى

تلوح بمنديلها إليك . إنها ستفتح لك وتسلم إليك ، وحدك ، يافارس المسيح ، حياتها وثروة القلعة » . ففعلتُ ذلك وبعد الدقات فُتح الباب وظهرت لى هذه المرأة مرتفقة على الخزائن المتألقة ، وكان وجهها الشاحب تحت تاجها يتنفس ذهول حورية مبعوثة من السماء . ولكنها بعد أن تماسكت ، وهدأ روعها ، بثقتها فى جمالها قالت لى: « ها هى ذى خزائن القلعة كان المنهزمون يريدون الاستيلاء عليها وأخذى معهم ولكنى آثرت البقاء هنا لكى أقدمها إليك فإن سليلة الملوك والملكات لا تقبل أن تعيش أو تموت خارج قصرها . وإنها تعتقد فى سمو روحك ونبل مقصدك . » فكان صوتها ونظراتها وجسمها أكثر ارتعاداً واضطرابا من ألسنة اللهيب المندلعة فى كل أنحاء المدينة الأسيرة . ولقد أمرت بإطفائها واستولى على حب هذه المرأة الشجاعة ، وجعلت حسبى هذه المرأة ثمرة ملوكية للفوز والانتصار .

لم يسمح كبرياء غانية الشرق أن تبحث عن مبرر لما سمعت فكانت تحتفظ بوجه ذى هدوء مرعب . قال لها السيد جيوم :

— لم يبق لى إلا الموت . لعن الله تلك الذكريات المشتركة بيننا ! ليته ما خلقك ! لا أطيق البقاء هنا من اليوم ، روحى تنفر مذعورة من هذه البقعة ، لا يمكن أن أتنفس فيها ، أعلم

أننى سأكون أحمق إذ أسلم نفسى بيدى ولكن هذا الطيش هو أقوى من العقل . فلنودع حياة الخضوع ، ولندخل بقوة وعنف فى ميدان هذه الآلام .

انتهى ! لقد مج هذه الحياة وأصبحت شدة كراهيته للفتاة باعثا له على أن ينفصل وحده إلى الهاوية فلم يعد يود أن تشترك معه فى شئ وآثر الوحدة فى الموت على تلك الزمالة المنبوذة والاشتراك البغيض

قال لها بصوت هادئ بالعربية :

— يامن خلقت من دم الأفاعى !

واتجه إلى الفرسان الفرنسيين وصاح بصوت عال وهم يملأون القاعة :

إذن يا سادتى ، ففتحكم لهذه المدينة كان نتيجة خيانة مدبرة وثمرة اتفاق جبنكم مع خيانة امرأة مارقة .

وما نطق بهذه الكلمة حتى قذف أحد المدعوين كأساً ثقيلة أصابته فى جبهته وطرحه على الأرض تتصبب منه الدماء ، وانهال عليه كثيرون بالضرب ! . . . وفى الحال ارتمت غانية الشرق على صدر الرجل القاسى ، ارتمت كنمر صغير ووضعت صدرها على صدره ، وتلوثت بدمائه التى تسيل من جبهته ؛ سقطت معه على

الأرض فعطلت بعملها بوادر الغيظ التى بدت من أسراب الكلاب العقر والذئاب الضارية . وحاول الفتى عبثا أن يناضل اعداءه وهو فى تشنج الغضب ونوبة الآلام وربما كان نضاله ضد هذه المرأة أيضاً التى سببت هلاكه بحبها المشئوم . وأحدقت العشيقة بجسمه وزمته بيديها كما تزم الأفعى بحلقات جسمها ، وحاطته فى حرارة وهجست بكلمات ملتهبة لم يفهمها أحد غيره :

— إذا مت فلتكن على يقين من حبى وإخلاصى .

ولا يزال يدفع عن نفسه هذه الملاطفة والنساء يطفن فى الغرفة ، فى ذهول وطيش ، كأسراب من النحل . إنهن يخشين من عودة الذبائح الأولى فتضيع هذه التضحيات سدى . كان المطران وايزابلا هما اللذان لم يفقدا صوابهما فى هذه الثورة الجامحة التى اندفع بها الفرسان ، كل يتسابق إلى ضربه فيعطل بعضهم الآخر . وكان هذا التعطيل هو الفرصة الوحيدة للانقاذ ، وكم استعصى الأمر على المطران حتى استطاع أخيراً ، أن يُسمع كلماته المهدئة ! فقد حصل على إذن أن يسلَّم المتهم وقد تلف جسمه ودلف إلى الموت ، إلى الجنود ليحرسوه حتى ساعة المحاكمة .

١٧

حمل الحراس السيد جيوم وقذفوه فى حظيرة ، إذ لم يكن يوجد سجن معد ، وعلقوه من يديه فى قمة معلف من المعالف بطريقة تجعل قدميه لا تلمسان الأرض ، ويديه تحملان ثقل جسمه كله . ثم انصرفوا ولم يأبهوا لاغلاق الباب جيداً لأن الفتى كان فى حالة احتضار

وما كاد الحراس ينصرفون حتى كانت غانية الشرق وايزابلا تتسللان إلى الحظيرة بين ترحم وبكاء ، وحيرة ملتهبة . أرادتا أن تفكا الحبل الذى يُشنق فيه ولكنهما لم تستطيعا ، ووفقتا إلى جعله يتعرف عليهما ، وضمت غانية الشرق خصره بذراعيها وحاولت أن ترفعه ولكنها عبثاً ما حاولت ! فبركت إيزابلا على الأرض ورجت المسكين أن يضع قدميه على ظهرها لعل فى ذلك تخفيفاً لبعض آلامه .

فهمس بلهفة وهو يعود إلى الحياة :

— يا ملاك الموت ! أنت وحدك الذى أريد أن أراه .

ولم تقبل غانية الشرق أن يحول ضباب — حتى فى النزع الأخير — بين روحه وروحها الملتهبة، وأن يقذف بها إلى مرتبة ثانوية . قالت ووجهها الحنون المزهو مستند إلى قلب العشيق وهى تريده على الإجابة :

— هل تموت وأنت تكرهنى ؟

— نعم وأموت معذبا بسببك .

— أخبرنى كيف كنت أستطيع أن أبعد عنك هذه الآلام ؟

— كان ينبغى ألا تخونينى .

ويح غانية الشرق ! حتى رهبة الموت لا تعيرها اكتراثا ولا تقبل منها عطة واعتباراً ! إنها تجيبه قائلة :

— أتعد ذلك خيانة ! وأنت ماذا تعد رفضك الدفاع عن القلعة ضد زملائك فى الدين ؟ إنك لم تفعل أكثر من شغلنا بدفاع سلبى زاعماً أنه لا أمل فى الانتصار . لماذا ؟ آه ! إننى أعلم أنك لم تكن تريد أن تقتل إخوانك المسيحيين وها هو ذا دورك قد جاء . إفهم طبيعتى كما فهمت طبيعتك ! إفهم أن غانية الشرق لم تولد لكى تقبل أن يوجد منتصرون لا تستطيع

السيطرة عليهم . ما كان من خلقى أن أحيا حياة ميتة ، لتفهم النساء أو تفهم ملكة النساء على الأقل . قد تطلب إلىّ ألا أعيش وربما كان واجباً على كل امرأة أن تموت مع الذى تحبه ، ولكنى طالما أتنفس الحياة فلن أستطيع مقاومة القوة الملكية التى تكمن فى نفسى .

— كنت أحب هذه القوة الملكية ، ومن أجلها تعذبت ، وسوف أموت . فلم يعد لى من الوقت ما أكشف لك فيه ما استعصى من الكلمات الخداعة ومن وجهك المخاتل ومما تبيّتينه تحت هذه الأحلام المنتشية الرقيقة . ما من مخلوق يمر على مقربة من لحاظك أو خيالك حتى تريديه على أن تستعبديه . ضايقتنى كثيراً ، يا مشعل وجودى ، ومع هذا فلم أكف عن حبك وعبادتك . سمعت قلبى حينئذ يتمتم « إلى الحياة ، إلى الموت ! » الوداع أيتها الطلعة التى أعزها . ولتكن مباركة تلك التى هى أكثر منى رقة وأشد حناناً ، التى استمددت منها العون . وأتمنى أن يهبكما الله من السرور ما يوازى آلامى !

— اعلم أيها الصديق الجاحد أننى وإن كنت سببت لك آلاما فاننى كنت أحبك فى كل نفس من أنفاسى ، فى طعامى ، فى نومى فى كل دقيقة من دقائق حياتى هادئة أو عنيدة إن كنت

تعتقد أن لى فيها نصيباً . إننى حين عجزت عن أن أكون مسعدة لك أردت أن أكون عذابا . فإنى لاأريد أن أسقط من حسابك وأغيب عن حسك وما كنت أرضى أن أكون بين جوانحك دون المرتبة الأولى .

قال لها :

— الوداع هذه اللحظة التى كنا نتنبأ بها دائماً ، وقد حلت على ما أحب لأن مودتك ماثلة أمامى زاخرة بقلبى . إننى أشكرك على كأس النبيذ التى قدمتها لى فى أول مساء غنيت فيه ومنذ هذه اللحظة لم أكف عن نشوة السعادة والشقاء . إن شمس حياتى آذنت بالمغيب وقد وضعت نصب عينى أن حبيبتى كانت أغلى امرأة بين نساء آسيا . وإنى عرفت بك أنوار الشباب ، وعرفت الآلام واللذة . الوداع يا زينة الدنيا ويا سبب وجودى !

كانت تصغى إليه وتضمه بين ذراعيها وتقبل صدره وتغنى بصوت سريع أمانى خالدة من الحب :

— خذ راحتك مطمئناً ، أنت الذى كنت أرتجيه فى بستان على نهر العاصى ، قبل مجيئك ، ثم عرفتك بعده ؛ أنت الذى عرفته لا ينأى عن قلبى حتى حين ظهرت من جديد فى هذه الكارثة التى نحن فيها . لتكن مقدساً ، أنت الذى تسببت

بنوبة من الجنون فى أن تضيع من يدى . لأحتفظن بك فى قلبى حتى أموت إن قدر لى أن أعيش بعدك .

— أموت وتعيشين بعدى ! لتلحقا بى فسنحيا من جديد ساعات سعيدة فى استقرار أبدى ، لنخرج معاً من هذا العالم . تعالى ، أيتها الحبيبة ، شاطرينى راحتى التى سأستعيدها .

وهكذا كانا يتبادلان فى كلمات رقيقة مفزعة أسرار الحب والغرام . . . إلا أنهما الآن لم يصبحا وحدهما . فإن لدى الباب شخصا يستمع إلى كلامهما وهو المطران .

لم يستطع المطران أن يبقى فى قاعة الوليمة فإنه عند ما رأى السيد جيوم فى أول يوم رآه رثى لحاله لأنه فهم أنه ذو فضل كبير فى الإبقاء على أرواح هؤلاء النساء العرب وأنه كان بجانبهن بمثابة رسول للعناية الالهية . ومنذ اللحظة ترك المطران الفرسان فى سكرهم وطلب أن يقاد فى الردهات المظلمة إلى السجن المرتجل الوضيع . والآن يضع يده على الباب الثقيل المفتوح إلى نصفه فيسمع هذه الهمهمة وهذه المناجاة وتلك الحشرجة التى تصل بين السماء والأرض ، ويسمع هذه الكلمات الأخيرة من السيد جيوم إلى عشيقته :

— أريد أن تكون إيزابلا هى التى تمسك بيدى وتسكّر

عينى فصورتك ستكون تحت جفنى منكسة . إننى واثق من أن ايزابلا ستعيننى خيراً منك فأنت لم تخلق لتنأى لحظة واحدة عن شخصيتك . ومع هذا فأود سماع صوتك إلى النهاية . ليست هواجسك هى التى تختلط وتضطرب ولكنه صوتك المفعم بالسماء . إننى أريد أن أذهب إليها . . . لست أنت التى أحبك فإننى أبغض فيك أموراً شتى ولكنك وهبتنى فى هذه الأرض صورة عن السماء وإنى أحب هذا الملاك الخفى الذى يشبهك فهو الملاك الكامل الذى يقف إلى جانب إنسانيتك الناقصة . . . الوداع يامن هى أفضل منى ، يامن أقسو عليها وأحبها ؛ الوداع فإنى لاحق بالكوكب الذى أنت قبسة منه ، وبالسمو الأبدى الذى أنت نفحة منه . . . وشكراً لك يا إيزابلا العزيزة .

لم يستطع المطران أن يحتفظ بانفعاله أكثر من ذلك فأسرع إلى قاعة الوليمة وقص على الفرسان كيف أن هاتين المسلمتين يساعدان هذا الثائر المسيحى على ميتة طيبة ويفتحان له أبواب السماء . حينئذ يتبع الفرسان الرجل المسن ، يصحبهم حمالو المشاعل ويدخلون جميعاً فى الحظيرة . ياله من منظر ! هذا هو الشاب يعالج سكرات الموت ، وهاتان الفتاتان تعينانه فى رقة

واحتمال . هذه الوجوه الرقيقة المعذبة بالآلام والثياب الفاخرة الممزقة الملطخة بالدماء . ايزابلا تبرك على الأرض وتعمل جاهدة كما تفعل القديسة أو كما تفعل البهيمة على أن ترفع هذا الجسد الذى يلفظ نفسه الأخير ؛ وغانية الشرق تضم الجثة بذراعيها . ما أشبه هاتين الجميلتين بالحب والشفقة ! كان هذا المنظر ينبئ عن حدوث الطامة الكبرى والمأساة ذات الأسرار الثلاثة . وأصبح هؤلاء الرجال الذين كانوا يبغضون هذا الفارس الشاب ويحقدون لذتهم فى ضربه حتى يموت يدهشون حين يشهدون الفتاتين تواسيانه ، ويحيطون بنوع من التقدير الدينى ذلك اللغز الشعرى الساطع الذى لم يمتلكوا مفتاحه ولم يكشفوا سره .

شطت أفكارهم ، حتى لم يدر بخلدهم أن ينطقوا بكلمة . ولكن غانية الشرق توجهت إلى الأمير والمطران والفرسان قائلة :

— إننى لم آل جهداً فى الإبقاء على السيد حيوم لأعمالنا ، والحق أنكم فقدتم يا سادة بغير حق — أخاً بائساً أكثر منه متهماً .

وقال المطران :

— لا ينبغى لنا أن نبغض الموتى ، ولا أن نبالغ فى بكائهم وإنما ينبغى أن نبنى لهم قبوراً يثوون فيها . فليكن قبر السيد

جيوم تذكرة لنا بخطاياه وبؤسه وتوبته ! سيدتى غانية الشرق : لا شك أنك ستطيعين المنة العادلة والطبيعة الإلهية حين تحاولين أن تعيدى إلى العقيدة الدينية الشخص الذى منحها إياك أول الأمر . لهذا سوف ندفن جثة السيد جيوم على مقربة من هنا فى دير نبنيه بعنايتنا جميعا ، وأنتن أيتها السيدات النبيلات المتنصرات عليكن بحراسة الجثمان . وأنت يا غانية الشرق ستجدين بعد موتك راحتك الكبرى وسنضع على قبرك قربان شعب تنصر أخيراً بأسره .

وأومأ المطران فركع الكل على قش الحظيرة الحقيرة وبارك الجثمان بتلاوة الصلوات المسيحية التى رددها الحاضرون ، ثم انسحب مع الفرسان حتى يتمكن النساء من أداء مراسم النياحة على الميت . وتقدمت إيزابلا خطوة وافتتحت حلقة المأتم تندبه بلوعة الشاعر :

لقد ظفرت برضاء العالم طول حياتك ،
واسترحت مع عشيقتك طول حياتك .
فإذا دقت ساعتك آخر الأمر
فقد وجب عليك الرحيل .

ويكون هـذا حلماً صنعته طول حياتك .
كنت عاشـقاً وفيًّـا أوسميراميس أخرى
فـلم تلبث يومين أو ثلاثة ،
حتى لم يبق منـك سـوى قصـة ،
حقًّـا ! حاولْ أن تكون قصة جميـلة
تحكى فى بسـاتين نهـر العـاصى .

سكت القاص ، فلم يكن يسمع إلا خرير الماء من العجلات الضخام التى ظلت فى هذه الليلة الباهرة من ليالى آسيا ، كلما غرفت من ماء النهر نظمت لهذه القصة جوقة عازفة من الأشجان والأنين والبكاء . ولبثنا بعض دقائق نسمع هذه الموسيقى التى ترف منذ أجيال ، دون انقطاع ، فى سماء حماة . وكان صوتها الشادى وسحر المساء فى سوريا يتعاونان على الامتزاج بالقصة التى حاولتُ أن أستعيدها من جديد . وليس فى مقدور أى بيان أن يعبر عن جمال هذه القصيدة الحية القائمة على أنين أبدى .

قال لى الإيرلندى وهو ينظر إلى ساعته :

— لنرحل الآن لأن الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، لقد حان وقت النوم .

وكان يقطن لدى محطة السكة الحديد ، فى غرفة جعلتها الشركة تحت تصرف المسافرين الموصى بهم ، أما أنا فذهبت أبحث عن عربة السكة الحديد التى أحضرتنى فى هـذا المكان ، وهى واقفة على قضب التخزين وسرنا معا ، والكلاب الضخام تهرّتنا وكنا نقلقها ، وبينما أنا دائب على انبعاث هذه الصور من الحب والآلام قال صديقى ونحن على وشك الافتراق :

— آه ! نسيت أن أخبرك أن الذى كتب المخطوط يحكى فى الصفحة الأخيرة أنه فى طفولته عرف غانية الشرق الحسناء وقد أصبحت رئيسة الدير فى قلعة العابدين ، وأنه يمتلك هذه القصة من جدته إيزابلا الحكيمة إذ أنه نشأ من السلالة الثالثة الناتجة من زواجها بُعيد موت جيوم الفاجع بأحد فرسان أمير انطاكية .

شارم ، يوليو - اكتوبر عام ١٩٢١ .

AUB. LIBRARY

DATE DUE

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00468344